

نساء صغیرات

۱

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

القاهرة

الطبعة الأولى : سنة ١٩٥٤

الطبعة الثانية : سنة ١٩٥٥

الطبعة الثالثة : سنة ١٩٥٨

الطبعة الرابعة : سنة ١٩٦٨

الطبعة الخامسة : سنة ١٩٨٣

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

نساء صغيرات

١

تأليف

لويزا م. ألكوت

ترجمة

أمينة السعيد



دارالمعارف

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت الجمعية المصرية لنشر المعرفة
والثقافة العالمية بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

**This is a translation of LITTLE WOMEN
by Louisa May Alcott. Published in the
United States of America by Houghton
Mifflin Company and its predecessors.**

محتويات الكتاب

صفحة	
٥	١ - لعبة الحجاج .
٢٩	٢ - عيد سعيد .
٥١	٣ - لورنس الصغير .
٧٦	٤ - متاعب وهموم .
٩٩	٥ - حقوق الجار .
١٢٥	٦ - «بث» في قصر الأمانى .
١٣٩	٧ - «آمى» تقاسى الهوان .
١٥٣	٨ - «جو» في قبضة الشيطان .
١٧٦	٩ - «ميج» تجرب مباحج المجتمع .
٢٠٨	١٠ - ندوة الأدباء .
٢٢٧	١١ - تجارب .

تصدير الطبعة الأولى

من هم ؟

بقلم الأستاذ حسن جلال العروسي

هذا كتاب نساء صغيرات كأصدق ما يعرف كتاب من عنوانه ، مؤلفته « لويزا الكوت » ؛ سيدة شبت صغيرة في كنف عائلة مكونة من شقيقات أربع وأب وأم . هي عائلة عادية لا يميزها من هذه الناحية ميمز عن باقي عائلات العالم إلا أن يكون ذلك في أن الأب « أموس برونسون الكوت » كان معلماً بحرفته ، وكان إلى ذلك مصلحاً تعليمياً واجتماعياً أثر بآرائه واتجاهاته في بيئته وفي جيله . وأيا كان مدى تأثيره خارج نطاق بيئته فما من شك في أنه أثر في تنشئة صغيراته ، وتكوين عقلية واحدة منهن على الأقل - هي المؤلفة - وتكليف اتجاهاتها الذهنية . فقد وجدت تعاليمه وتوجهاته أرضاً خصبة في ابنته الموهوبة ، كما وجدت فيها ذاكرة فتوغرافية - إن صحح هذا التعبير - وقلماً هو بريشة الرسام الفنان الأصيل أشبه ! فاخترت لويزا في وعيها الصور المتلاحقة في حياتها مرحلة فرحلة ، وصورتها بقلمها لوحات رائعة في بساطتها وفي صدقها بأسلوب يمس شغاف القلوب بما فيه من دراسة إنسانية . وجعلت لويزا من هذه

الصور المتلاحقة قصة حياتها ، ولكنها كذلك جعلت منها قصة حياة كل عائلة ، وكل نساء صغيرات ، في أسلوب قصصي جذاب لا تكلف فيه ولا اصطناع . وما من شك في أن المؤلفة إلى جانب تأثرها بوالدها تأثرت بمرحلة دراستها ، وبصفة خاصة بأحد مدرسيها وهو هنري دايفيد ثورو ، وهو كاتب أمريكي ذاعت شهرته في التأليف فيما بعد ، وكذلك تأثرت المؤلفة برحلاتها المتكررة إلى أوروبا ، وبالوظائف التي تقلبت فيها قبل أن تنضج وتستوى مواهبها كقاصة ومؤلفة . فقد مارست التدريس في المدارس حتى سن الثلاثين ثم ذهبت إلى واشنطن متطوعة في الجيش الاتحادى في أثناء الحرب الأهلية كمرضة ، ومن وحى هذه المرحلة كتبت سلسلة من المقالات الوصفية لحياة المستشفيات نشرت سنة ١٨٦٣ فكانت أول ما أذاع شهرتها ككاتبة . ومع أن ملكات المؤلفة الأدبية تفتحت وهي لا تزال صغيرة نسبيا ، إذ بدأت في الكتابة والتأليف وهي في السادسة عشرة من عمرها - فإن مجدها الأدبى كان مع الكتاب الذى نقلمه على ميعاد ، فلم يكده ينشر سنة ١٨٦٣ - وهي في الحادية والثلاثين من عمرها - حتى استطارت شهرتها وذاع صيتها ككاتبة من طراز فريد .

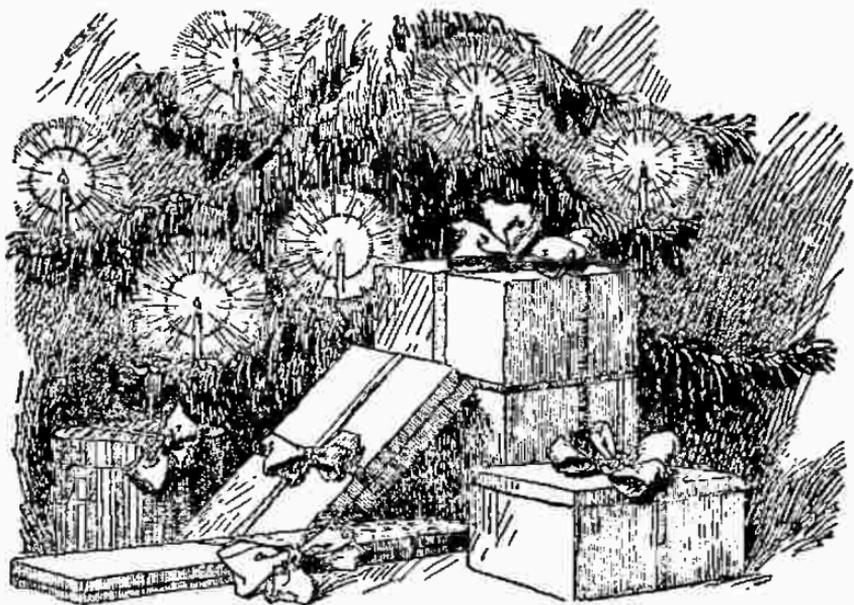
إن حديث النجاح الذى صادفه هذا الكتاب ليشبه في غرابته الأساطير . فقد أعيد نشره مرات يكاد يخطئها الحصر ، حتى بلغت النسخ التى طبعت منه بالإنجليزية وحدها أكثر من ثمانية ملايين نسخة في مختلف طبعاتها . كما ترجم إلى معظم اللغات الأجنبية . ومن أحدث

اللغات التي ترجم إليها في السنوات الأخيرة اللغات الإسبانية ، والفرنسية ، والفنلندية ، والفرنسية ، والإيطالية ، واليابانية ، والرومانية . وأخرجت القصة كذلك على الشاشة البيضاء مرتين بنجاح كبير . ويعد هذا الكتاب حتى اليوم على رأس الكتب الأدبية التي تستأثر بإعجاب الجماهير وتقديرهم جيلاً بعد جيل . وقد ظهر هذا الكتاب في السجل الرسمي الذي يصدره الناشر الأمريكيون عن أعظم المؤلفات ذبوعاً ، بل ظهر على رأسها جميعاً . ومن عجب أن يظهر بعده في السجل نفسه كتاب آخر للمؤلفة ذاتها ، يجري على النسق عينه ، وهو قصة « رجال صغار » وإن يكن النجاح الذي بلغه الكتاب الأخير لم يصل إلى نجاح الكتاب الأول لسبب لا يصعب استنتاجه هو أن المزلفة في كتابها الأول كانت تصف حياتها الحقيقية الخاصة وحياتها شقيقاتها الثلاث ، في حين كانت تصدر في كتابها الثاني (رجال صغار) عن معينها الخصب من التصور والخيال . وماتت لويزا ألكوت سنة ١٨٨٨ وهي في السادسة والخمسين من عمرها بعد أن خلفت أكثر من عشرين كتاباً .

أما مترجمة « نساء صغيرات » فهي أيضاً سيدة كاتبة وقاصّة من الطراز الأول ، وهي بذلك في غير حاجة إلى التعريف . ولعله ليس بين من عهد إليهم بترجمة هذا الكتاب إلى لغات أجنبية من صادف اختياره مثل ذلك التوفيق الذي صادف اختيار السيدة أمينة السعيد . ومن عجائب المصادفات أن تكون مترجمة الكتاب إلى العربية ليست مجرد سيدة وكاتبة

مشهورة فحسب ، بل تشترك في أكثر من ناحية مع المؤلفة وظروف حياتها الخاصة وتكوينها ، فالسيدة أمينة السعيد - كلويزا ألكوت - صاحبة أسلوب سهل إنسانى بسيط فى بلاغته ، وهى مثلها لإحدى شقيقات أربع ، وهى أخيراً مثلها فى أنها ابنة رجل كان مصلحاً اجتماعياً كبيراً ، وبذلك أثر بغير شك فى تكوين بناته جميعاً . وهن اليوم من نعرف مكانة فى مجتمعتنا المصرى .

وثالثة المصادفات أن تفوز بجائزة فرانكلين لتصميم غلاف هذا الكتاب آنسة هى « اعتدال حسن منيب » مدرسة الرسم بمدرسة الحواياتى الفنية الثانوية ، وخريجة معهد الفنون الجميلة ، والفائزة بجائزة مختار للفنون الشعبية . ولعله مما يستحق التسجيل هنا أن عدد الأغلفة التى قدمت فى المسابقة لهذا الكتاب بالذات فاق نظائره بالنسبة إلى الكتب الأخرى ، ومن ثم كان نجاح الآنسة اعتدال خليفاً بتويبه خاص .



الفصل الأول لعبة الحمجاج

كان عيد الميلاد قد قرب ، ولم يبق على الاحتفال به غير ليلة واحدة ، ولم يكن في شواهد الأمور ما يدل على أنه سيكون عيداً ممتعاً ، فاجتمع الأخوات الأربع حول الموقد يصطلين بنيرانه في وجوم .

قالت چو ، وهي مستلقية على البساط :

— لن يكون العيد عيداً بمعناه الصحيح ما لم تأتنا فيه الهدايا كالمعتاد .

قالت ميج ، وهي ترمق ثوبها العتيق بحسرة :

— ما أقسى الفقر !

وقالت آى الصغيرة بصوت عامر بالألم :

— ليس من العدل أن ينال بغض الفتيات كثيراً ، ولا ينال غيرهن شيئاً على الإطلاق .

أجابت بث وفي صوتها آيات الرضا :

— ولكننا نحظى بأماننا وأيينا ، وكذلك نحظى ببعضنا بعضاً ،

وهذه نعم جزيلة .

فأشرقت الوجوه الأربعة التى ينعكس عليها لميب الموقد ، ثم ما لبثت

أن اغتمت ثانية عندما قالت جوفى حزن :

— وهل حقيقة نحظى بصحبة أئينا ؟ إنه بعيد عنا ، ولن يعود إلينا

قبل وقت طويل .

ولم تقل إنه قد لا يعود إليهم أبداً ، وإن قالتها أخواتها فى سرائرهن ،

وهن يذكرن ذلك الأب العزيز الحبيب الذى تركهن إلى ميدان القتال .

وساد الصمت لحظة قصيرة ، ثم قالت ميج فى رنة جديدة :

— ولكننا نعرف لماذا لن تعطينا أماناً هدايا فى هذا العيد ، فسيكون

الشتاء قاسياً على الناس كلهم ، وفى رأيها أنه ليس من الكياسة أن ننفق

نقودنا في متعنا ومسرانا ، ورجالنا يقيسون الشدائد في الحرب . إننا بعدُ صغيرات ، ولن نستطيع أن نسهم معهم بأدوار فعّالة ، أفليس من واجبنا على الأقل أن نبذل هذه التضحية النافهة راضيات ؟ ولكني لست في الحقيقة راضية بالتضحية تمام الرضا !
وهزت رأسها حزينة ، وهي تفكر في مختلف الأشياء الجميلة التي تريدها .

فقالت چو : وكانت مولعة بالقراءة :

— لن يضير رجالنا أن ننفق نقودنا القليلة في شراء ما نحب ، فليس لدى إحدانا أكثر من ريال ، وهو مبلغ ضئيل لن يستفيد به الجيش إذا نزلنا عنه . أعرف أنني لن أحصل على هدية منكنّ أو من والدتي ، ولكني أريد أن أشتري كتاباً طال بي الشوق إلى اقتنائه .

وقالت بث ، وقد نددت عنها نهدة قصيرة :

— كنت أتمنى أن أشتري بنقودي كتاباً جديداً في الموسيقى .

وقالت آي في عزم :

— سوف أشتري علبة أقلام ملونة للرسم ، لأنني في أشد الحاجة إليها .

قالت چو بوقار :

— لم تذكر والدتنا شيئاً فيما يختص بنقودنا ، ولن يسرها أن نحرم أنفسنا على طول الخط ، فلقد تعبنا في الحصول على هذه النقود ، وكسبناها بالعرق والجهد؛ وأرى أن نشترى بها ما نريد، وبذلك تتوافر لنا بعض المتعة.

قالت مبيج في تلمر :

— إننا بالفعل نتعب في الحصول عليها ، والله يعلم أنها لا تأتينا
سهلة هينة ، أفلمستُ أتقاضاها أجراً لتعليم أطفال مزعجين ، على أن
الآزمهم طول اليوم ، ونفسي تتوق إلى بعض الراحة في البيت ؟ !
فقالت چو :

— عذابك لا يعدو نصف ما ألاقيه ، فانا أخلم عجزاً نائرة
المزاج لا تكف عن الشكوى ، ولا تعطيني مهلة للراحة ، ولا يرضيها
شيء مهما كان ، وتظل طول اليوم تزعجني بصخبها وضجيجها حتى
ليخال إلى أن أفتر من النافذة ، أو أعرك أذنها مؤدبة .

ونظرت بث إلى يديها الخشتين وقالت :

— ليس من حسن الأدب أن أشكو ، ولكني أقوم بأشق مهمة
في هذه الدنيا : أغسل الصحون ، وأنظف البيت ، وأنظم الرياش .
إنه عمل بغيض يضر بنعومة يدي ويصلب أصابعي فلا أقوى على المراتة
على الموسيقى كما أحب .

فصاحت آمي تقول :

— ولكن عذابي يفوق كل عذاب ، فأنتن غير مجبرات مثلي على
الذهاب إلى المدرسة مع فتيات وقحات ، يعايرنني بجهلي ، ويضحكن
من ملابسي ، ويسخرن من شكل أنفي ، ويشهرن أبي لفقره وحاجته .
وابتسمت چو ، وقالت تصحح خطأ أختها :

— يُشهرن به ، لا يشهرنه ، فليس أبى بضاعة يعلن عنها !
أجابت آمى فى كبرياء :

— إنى أعرف ما أقول ، فوفرى عليك مشقة السفسطة ، فليس أجمل
من أن نستعمل ألفاظاً نحوية تُحسن معانى الكلام .

قالت ميج ، وقد عادت بها الذكرى إلى أيام سعيدة خلت :

— اتركن الشجار أيتها الصغيرات ، فما منه فائدة ، وحدثنى يا چو
ألا تتمنين أن يسترد أبى ثروته التى فقدها ، لهنأ ونسعد وتزول متاعبنا
كلها ؟

قالت بث :

— أما قلت يوماً إننا أسعد حالاً من أولاد الملوك ، لأنهم يتخاصمون
ويتشائمون بالرغم من ثرائهم الطائل وجاههم العريض ؟
أجابت ميج :

— نعم قلت ذلك ، وما زلت أعتقد أننا أحسن حالاً منهم ، فنحن
نعيش فى جو سعيد ، وإذا كنا نكد ونكدح فى طلب العيش ، فنحن
إلى جانب ذلك « شلة » مرحة — على حد تعبير چو .

فاستاءت آمى لكلمة « شلة » وعزّ عليها أن تستعين ميج فى حديثها
بألفاظ عامية ، فنظرت إليها عاتبة وقالت :

— لا يليق بك أن تقتبسى تعبيراتها ، فقد تعودت چو أن تستعمل
ألفاظاً دارجة فى حديثها .

وانتصبت چو من رقدتها ، ووضعت يديها في جيبها متحدية ، ثم بدأت تصفر بشفتيها لتغيظ أختها .

قالت لها آمي :

— أتصفرين أيضاً كما يفعل الصبيان ؟

أجابت چو :

— بل أنا أصفر لأتشبه بهم !

قالت آمي :

— أنا أكره الفتيات الخشنات .

قالت چو :

— وأنا أكره الصغيرات المغرورات .

وكان من عادة بث أن تنشر السلام بين أخواتها ، فجعلت تغرد كالطيور ، وهي تقلب سحنها في أشكال مضحكة ، وغرضها من ذلك أن تعيد المرح إلى الجلسة .

قالت آمي في استنكار :

— إن الطيور على أشكالها تقع !!

وضحك الأخوات جميعهن لكلامها ، وانتهت المشادة عند هذا الحد مؤقتاً ، فقالت ميج تنصح المتخاصمتين بلهجة الأخت الكبيرة العاقلة :

— كلتاكما في الحقيقة أخطأت ، فأنت يا جوزفين قد كبرت على هذه الألعاب الصبانية ، وحان الوقت لتحسن سلوكك . لم تكن صبيانيتك

ترعجني وأنت طفلة صغيرة ، ولكنك ترعرت طولاً وعمراً ، وأصبحت تعقسين شعرك كما تفعل الشابات ، فليس أقل من أن تسلكي سلوك الشابة المهذبة .

ولما سمعت چو هذا الكلام من أختها ، نزعت الشبكة التي تضم شعرها ، وهزت رأسها ، فاندلت خصلاته البنية على كتفها ، ثم قالت غاضبة :

— لا ، لست شابة كما تقولين ، وإذا كان تصنيف شعري بهذه الطريقة يجعلني سيدة صغيرة ، فلن أتردد في العودة إلى ما مضى ، فأجده في صنفيرتين حتى أبلغ العشرين من عمري . إنني أكره أن أصبح آتمة وقوراً أعقص شعري وأرتدى ملابس طويلة أنيقة ، وأحب شيء إلى نفسي أن ألعب مع الصبيان ، وأفعل مثلما يفعلون . كفاني عذاباً أن خلقت فتاة ، وكفاني ألماً أن تضطرنني أنوثتي إلى أن أطرز في البيت كما لو كنت عجوزاً حيزبوناً ، وقلبي يتوق إلى خوض ميدان القتال مع أبي جنباً إلى جنب ! !

وهزت چو الجورب الذي كانت تصنعه لجنود الجيش هزة عنيفة ، فتصادمت الإبر المعدنية في رنين مسموع ، وتدحرجت لفة الخيط على أرض الحجر .

قالت بث وهي تربت رأس أختها الغاضبة بيدها الخنون :

— مسكينة أنت يا چو ، كان يجب أن تولدى صبياً ، ولكن الأمر

جاء بالعكس ، ومن المحال أن تغيرى جنسك ، فخير لك أن تقنعى
بالاسم الصيبانى الذى ندلك به ، واعبرى نفسك أحياناً لنا نحن الفتيات ! !
وعادت ميج إلى نصحتها السابق فقالت للغاضبة الثانية :

— أما أنت يا أمى فكل همك فى الحياة أن تتأنقى وتتذمرى ، وإذا لم
تداركى عيوبك هذه بالإصلاح ، سوف يقال إنك إوزة غبية تافهة .
وأحب أن تعلمى أن أساليبك فى معاملة الناس لا تعجبني ، وألفاظك
النحوية المفتعلة ، لا تقل قبحاً عن التعبيرات العامية الى تكثر منها جو .
قالت بث وقد أعدت العدة لتنال نصيبها من نصح أختها الكبيرة :
— عرفنا أن جو تقلد الصبيان ، وعرفنا أيضاً أن أمى إوزة غبية تافهة ،
فماذا أكون فى رأيك يا ترى ؟ ؟

قالت ميج بحمارة :

— أنت أخت عزيزة ، وستكونين كذلك دائماً .

ولم تعترض واحدة من الأخريات على هذا الوصف ، لأن بث
كانت حبيبة الأسرة كلها .

قد يلذ للقراء أن يعرفوا مزيداً من وصف شخصيات هذه القصة ،
لذلك ننهز هذه الفرصة ، فنرسم صوراً واضحة للأخوات الأربع اللواتى
جلسن يتناقشن حول الموقد ذات مساء ، وثلوج ديسمبر تتساقط فى
سكون خارج البيت .

كانت الغرفة التى يجلسن فيها ، رغم بساطة ريشها العتيق ، مريحة

أنيقة ، على جوانبها تقوم رفوف خشبية مليئة بالكتب . وجدرانها مزينة ببعض الصور ، وفي نوافذها أوان عامرة بزهرات الأقحوان أضفت على المكان جواً من السكينة والجمال .

وكانت مارجريت - ميج - كبرى الفتيات الأربع في السادسة عشرة من عمرها ، شقراء ممتلئة الجسم ، واسعة العينين ، شعرها بني غزير ، وفها صغير عذب ، ويدها بضتان جميلتان . وكانت جوزيفين - جو - في الخامسة عشرة . فارة القامة نحيفة الجسم ، أطرافها الطويلة تجعلها مثل مهر صغير ، وفها الصارم ينم عن حزم شديد ، وأنفها على صغره مضحك الشكل . وكانت لها عينان رماديتان ذكيتان تتقلبان حسب الظروف ، فاحياناً تكون نظراتهما غاضبة ، وأحياناً أخرى ضاحكة أو ساهمة . وكان أجل ما فيها شعراً بنياً غزيراً ، ولكنها كانت تحرص على إخفاء جماله ، فتعقسه خلف رأسها ، وتغطيه بشبكة ضيقة الثقوب ، حتى لا تتساقط خصلاته على كتفها . وكانت على الدوام قليلة العناية بهندامها ، سريعة في حركاتها ولفاتها ، وونظرها على العموم يوحي بأنها فتاة تسير في طريق النضج النسوي ، فتثور نفسها غضبا على هذا التغيير !

وكانت اليزابث - بث - في الثالثة عشرة من عمرها ، ناعمة الشعر متألفة العينين ، في صوتها خفوت مستحب ، وفي حلقها خجل وحياء ، وفي طبعها على العموم سكينة وسلام . وكان أبوها يسميها « الهادئة

الصغيرة « فكان اسماً على مسمى ، لأن تصرفاتها كلها كانت توحى بأنها تعيش سعيدة في عالم مستقل بها ، وأنها قانعة بعالمها هذا لا تخرج منه إلا لمن تحبهم وثق بهم .

أما أمي أصغر الفتيات ، فقد كانت مثل دمية بيضاء : قوامها نحيف ، وشعرها ذهبي ، وعيناها زرقاوان . وكانت كثيرة الاعتداد بنفسها ، حتى ليخيل ليها أنها أهم أفراد الأسرة كلها ، وكانت شديدة الرغبة في أن تكبر سريعاً ، وتصبح سيدة ناضجة ، فكانت تشبه بالكبيرات في ملبسها ووظيفتها وحديثها .

ونعود الآن إلى القصة فنقول : إنه عندما دقت الساعة ستا ، قامت بث إلى الموقد فنظفت الأرض حوله ، ثم وضعت حذاء أمها على مقربة منه . وكان عملها هذا إيذاناً بقرب عودة الأم إلى البيت ، فعم الانشراح قلوب الجالسات ، وكفت ميج عن إسداء النصح لأخواتها ، وانشغلت عن ذلك بنقل الحذاء على مقربة من النار حتى إذا عادت أمها وجدته دافئاً .

وقالت وهي تنظر إلى الحذاء :

— لقد أتى عليه الزمن ، ويجب أن يكون لأمي حذاء جديد .

قالت بث :

— كنت أفكر في شراء حذاء جديد لها بالريال الذي ادخرته للعيد .

فصاحت أمي :

— بل أنا الذى سوف أشتريه .

قالت ميج :

— ولكنى أكبركن منا ، ومن حتى . . .

ولكن چوقاطعتها فى حزم وقالت :

— لن يشتري الخذاء غيرى ، فقد أوصانى أبى بأى قبل رحيله إلى

الميدان ، وأحب أن أشعر فى غيابه ، أنى رجل الأسرة .

قالت بث :

— عندى فكرة طيبة ترضينا جميعاً ، وهى أن نشرى بنقودنا هدايا

لوالدتنا بدل أن ننفقها فى متعنا .

فقالت چو معجبة بالفكرة :

— هذا كلام جميل ، فاذا نشرى لها مثلاً؟

وجلس الأخوات الأربع يفكرن فيما يشترين . قالت ميج وهى

تأمل يديها البضتين الجميلتين :

— سوف أهدىها قفازاً جديداً .

وصاحت چو :

— وأنا أشتري الخذاء .

وقالت بث :

— وأنا أعطيها مناديل مطرزة .

وقالت آمى :

— إنها تحب ماء الكولونيا ، والرأى عندى أن أبتاع لها زجاجة رخيصة الثمن وبذلك يتبقى لى جزء من الريال أشتري به شيئاً لنفسى .

سألت ميج أخواتها :

— ولكن كيف تقدم لها هدايانا ؟

فأجابت چو :

— نضعها على المائدة فى لفافات ، ثم ندعوها لتفتحتها أمامنا ، ألم نكن نفعل ذلك فى الأعياد الماضية ؟

قالت بث وهى تقدد الخبز على النار استعداداً لوجبة الشاى :

— كنا نفعل ذلك ، وكانت تتناوبى الرهبة عندما يحين دورى ، فتجلسنى على المقعد الكبير ثم تتقدمن منى واحدة واحدة فتعطينى هداياكن . وتطبعن قبلا تكن على جيبى . وكنت أفرح بالهدايا وأغضب بالقبلا . ثم تعود الرهبة فتتملكنى وأنا أفتح اللفافات لأرى ما فيها .

قالت چو وهى تذرع الغرفة جيئة وذهاباً :

— لا تطلعن أوى على السر ، ودعنها تعتقد أننا سننفق نقودنا على أنفسنا ، ثم نفاجئها بالحقيقة فى حينها . فأرى أن نشترى الهدايا من السوق مساء غد ، وهيا بنا الآن ياميج نستذكر أدوارنا فى الرواية التى سنمثلها فى ليلة عيد الميلاد .

قالت ميج :

— هذه آخر مرة أمثل فيها معكن ، فقد كبرت ولم تعد ألعاب الصغار تلائمني .

قالت چو :

— لن تهجرى التمثيل ما دمنا نعطيك فرصة تتبخرين فيها على المسرح بثوبك الأبيض وشعرك منسدل على كتفيك . ثم إنك أقدرنا على التمثيل ، فإذا نفعل من غيرك ؟

والتفتت إلى أخواتها وقالت :

— هيا بنا نراجع أدوارنا ، ورجائي يا أمي أن تتقني الإغماء ، ففي آخر مرة سقطت على الأرض متصلبة ، كما لو كنت لوحاً من الخشب . ولم تكن أمي ذات مواهب تمثيلية ، ولكن الاختيار وقع عليها لأنها صغيرة الحجم بحيث يسهل على بطل القصة أن يحملها ويخرج بها من المسرح دون عناء .

قالت أمي :

— لا حيلة لي إذا ما أخفقت في دوري فأنا لم أرف في حياتي أحداً يصاب بالإغماء ، ولا أحب أن أرى بنفسى على الأرض كما تتبغين خشية أن أصاب برضوض وكدمات . أفضل أن أسقط بسهولة ، وأرتمى على المقعد في رشاقة ودلال ولا يهمني ما تقولون في مواهبي بعد ذلك .

قالت چو :

— انظري إلى "أعلمك كيف تحسنين دور الإغماءة . أطبق كفيك

هكذا ، وترنحي عبر الحجره ، ثم اصرخى قائلة : أنقذنى يا رودريجو !
أنقذنى !

واندمجت چو فى تمثيل الدور ، وأطلقت صرخة مسرحية مدوية .
وبدأت آمى تقلدها ، ولكنها عادت إلى تصنعها السابق ، فحركت
يديها فى آلية شديدة ، وبدل أن تصرخ تأوهت كما لو كان دبوس قد
وخزها .

وندت عن جو أنه يأس ، وضحكت ميج عالياً ، وانشغلت بث
بالموقف الفكاهى عن مراقبة الخبز الذى تقدمه فاحترق فى النار .
قالت چو :

— لا فائدة فى تعليمك التمثيل ، ومع ذلك أتوصل إليك أن تبذل
جهداً مضاعفاً أثناء الحلقة ، وإلا ضحك المتفرجون منك ، وكنت
وحدك الملومة على سخريتهم بك .

وسارت التمثيلية فى طريقها ، فتحدى «دون بيدرو» العالم بخطبة
من صفحتين ، وغنت الساحرة «هاجار» أغنية مفزعة ، وهى ترقص
أمام قدر ممتلئة بالصفادع ، وحطم «رودريجو» أغلاله ، أما «هوجو»
فقد قتله السم والألم والندم ، ومات وهو يئن عالياً .

قالت ميج التى كانت تقوم بدور الشرير المليت :
— هذه أحسن تجربة قمنا بها إلى الآن .
قالت بث بإعجاب ظاهر :

— تدهشنى مهارتك فى تأليف هذه الروائع ياچو ، و يقينى أنك
لا تقلين عبقرية عن الشاعر شكسبير .
وكانت بث تقول ذلك عن إيمان صادق ، و تعتقد أن أخواتها
ماهرات عبقریات .

قالت چو بتواضع :

— لست عبقرية كما تظنين ، وإن كنت قد وفقت فى تأليف
« لعنة الساحرة » ، وأظن أنها مأساة رائعة . ولكنى كنت أفضل أن نمثل
رواية « ماكبث » لأقوم بدور القاتل .

واختلطت من فوق المنضدة شيئاً ، ورفعته بيدها ، وقالت وهى
تقلد ممثلاً رأته على المسرح يزدى دور « ماكبث » :
— أهذا خنجر أراه أماى ؟

فصاحت ميج قائلة :

— لا ، إنها شوكة الخبز المقدد ، وعليها حذاء أوى ! !

وانتهت مراجعة التمثيل بعاصفة من الضحك .

وارتفع صوت من ناحية الباب يقول فى عذوبة :

— يسعدنى أن أراكن فى مرح يا بناتى .

واتجهت أنظار البنات إلى الباب ، حيث وقفت سيدة ممثلة الجسم ،
فى نظراتها أبلغ معانى الأمومة ، وفى ابتسامتها عطف وحنان . لم تكن
جميلة جمالا يلفت النظر ، ولكنها كانت أجمل الجميلات فى نظر بناتها ،

وكن يعتقدن أن معطفها الرمادى العتيق يضم أعظم امرأة فى العالم كله .
قالت الأم :

— حدثنى كيف مضى اليوم بكن ؟ يؤسفنى أن غبتِ عنكن طول
النهار فقد اشتغلنا كثيراً فى إعداد الصناديق التى سترسل بالهدايا غداً إلى
الميدان . فهل حضر أحد فى غيبتى يابث ؟ وكيف حال الزكام يا ميج ؟
وأنت يا جو ، لماذا أراك تعباً مجهداً ؟

وبينما كانت مسر مارش تستطلع أحوال بناتها ، جعلت تخلع
معطفها المبتل بالمطر ، واستبدلت حذاءها الرطب بالآخر الدافئ الذى
كانت بث قد أعدته لها من قبل . فلما انتهت من كل هذا . جلست على
المقعد الكبير . وأجلست آمى فوق حجرها ، وبذلك بدأت أجمل ساعات
يومها . وهى الساعات التى تقضيها وسط بناتها الأربع .

والنف الفتيات حولها يهين لها أسباب الراحة ، فأحضرت چو وقوداً
للنار ، وجعلت ترتب المقاعد فتصطدم بها . وتقلب كل ما تمسه يداها
الحشنتان . وكانت بث تهرول جيئةً وذهاباً بين المطبخ وحجرة الجاوس ،
أما آمى فقد سكنت إلى حجر أمها مكتفية بإصدار الأوامر لأخواتها .

ولما جلس الجميع حول مائدة الطعام ، قالت مسر مارش :

— سأخبركن بعد العشاء بنبأ سار .

وأشرقت وجوه البنات بالابتسام ، وصفقت بث ، وقد نسيت
أنها تحمل كعكة بيديها ، وقذفت چو بالمنشفة فى الهواء وهى تصيح :

— إنه خطاب . . . خطاب من أبي . اهتفن ثلاثاً تحية له !
 قالت مسرمارش وهي تلمس جبين ابنتها في محبة وإعزاز :
 — نعم ، إنه خطاب طويل ، مليء بالأخبار ، يقول فيه إنه بخير
 ولاداعي لأن نخاف عليه من برد الشتاء . وهو يبعث إليكن بمزيد
 حبه وبتعني لكن عيداً سعيداً .

وكانت چو في لهفة على الانتهاء من طعامها ، فجعلت تزرد الشاي
 بسرعة ، وفي عجاتها هذه سقطت منها على البساط قطعة خبز مغطاة
 بالزبد . قالت تستحث أختها :

— أسرعي بالانتهاء من أكلك يا آمي ، وكفالك عبتاً بأصابعك ،
 فقد فتت الكعك في صحنك .

وكفت بث عن الأكل بدورها ، وتسللت إلى ركنها المعتم ريثما
 تستعد الأخريات للمتعة المقبلة . وقالت ميج في حماسة وحرارة :



— كان جميلا من أبي أن يتطوع قسا في الجيش ما دامت سنه
 المتقدمة لا تسمح له بأن يشترك في القتال .
 قالت جو في حزن :
 — ليتني كنت قارع طبل في الجيش ، أو مجندة أو ممرضة فيه ،
 حتى أكون على مقربة من أبي فأساعده .



وتنهلت آى وقالت :

— إنى أكره النوم فى الخيام ، ولا أحب أن أشرب الشاى فى أكواب
من الصفيح .

وسألت بث أمها فى لهفة :

— متى يعود إلينا يا أماه ؟

قالت الأم :

— لن يعود قبل انقضاء شهور طويلة ، ما لم يمرض . وسوف يبقى
ليؤدى واجبه المقدس ما دام قادراً على أدائه . لا يصح أن نطلب منه أن
يعود قبل الوقت المحدد لانهاء عمله .

والتأم شمل الجميع حول الموقد ، الأم تجلس فى مقعدها الكبير ، وبث
عند قدميها ، وميج وآى على جانبيها ، وچوتقف وراءها ، حتى لا ترى واحدة
من أخواتها ما قد يرسم على وجهها من انفعالات أثناء قراءة الخطاب .
وكان الخطاب خلواً من الفقرات المؤثرة التى اعتاد الآباء أن يضمنوها
رسائلهم إلى أهلهم فى تلك الأيام . ولم يكن فيه إلا القليل من أخبار
المتاعب التى يتجشمها الرجال فى ميدان القتال ، والأخطار التى يتعرضون
لها ، والحنين الذى يستبد بهم لأبنائهم وزوجاتهم ، ولكنه كان عامراً
بالسرور والأمل ، بليغاً فى وصف حياة العسكر ، وطواير الجنود ،
وكان ختامه فقط ينزخر بما فى قلب كاتبه من حب أبوى وافر وشوق
عظيم إلى بيته وبناته .

كتب في نهاية الرسالة :

« بلغين عزيز حبي وقبلاتي ، وأخبرين أنني أذكرهن بالنهار ، وأصلي من أجلهن بالليل ، وأجد في عطفهن الدائم راحة وعزاء . قد لا أراهن قبل وقت طويل ، فاطلبي إليهن أن يؤدبن واجبهن كاملاً ، حتى لا تضيع أيام الفراق هباء . وأنا واثق بأنهن لن يهملن نصيحتي ، وسيطعن رغبتى ، فيقمن بواجبهن مخلصات ، ويقاومن عوامل الشر في شجاعة ، ويتصرن على نزوات النفس أجمل انتصار . حتى أعود إليهن وقد ازددت فخراً بنسائي الصغيرات » .

وانهدرت الدموع من العيون ، عندما وصلت الأم إلى هذه الفقرة ، ولم تخجل چو أن يرى أخواتها الدموع تنساب على وجنتها ، ونسيت آى اعتراضها بتصفيف شعرها ، فدفت رأسها فى صدر أمها ، وقالت :
— أنا مخلوقة أنانية ! ولكنى سأعمل على إصلاح أخطائى . حتى إذا عاد أبى لا يجد فى سلوكى ما يحزنه أو يسيئه .

وصاحت ميج :

— سنفعل ذلك كلنا . فأنا أعنى بأناتى أكثر مما ينبغى ، وأكره العمل وأفضل الراحة ، ولكنى سأبدأ من اليوم حياة جديدة طيبة .
وقالت چو :

— سأحاول أن أترك خشونتى ، وأكون السيدة الصغيرة التى يريدھا أبى ، وأؤدى واجبى هنا بدل أن أضيع الوقت فى تمنيات لا تتحقق .

ولم تتكلم بث ، بل جعلت في صمت تجفف دموعها في الجورب الأزرق الذي كانت تطرزه ، ثم عادت تطرز بقوة وحماسة ، كأنها تخشى أن تضيع وقتها دون عمل مفيد ، فتعصى رغبات أيها .
وقطعت مسر مارش السكون الذي أعقب قراءة الرسالة وقالت بصوتها المرع الحنون :

— أتذكرن كيف كنا نلعب لعبة الحجاج وأنتن صغيرات ؟ كان أمتع ما في هذه اللعبة أن أحملكن أحمالا صغيرة على ظهوركن وأقول إنها الموموم ، فتسرن بها كالحجاج من الطابق الأسفل إلى أعلى البيت ، حيث تلقين عنكن بأحمال الموموم تلك ، وتلعبن بعد ذلك خاليات البال متفائلات .

فقالته چو .:

— وكنا نحب هذه اللعبة حبا جما ، ونتمتع كل المتعة في طريقنا إلى أعلى البيت بالمعارك التي يبتكرها خيالنا مع الأسود والشياطين والجن ، في الصحارى والوديان ، وغرضنا أن نظهر قوتنا على قهر عوامل الشر ونزوات النفس ، لنصل إلى قصر الأمانى حيث المحبة والسلام والوثام .
وقالته ميج :

— كانت أحمال الموموم تسقط عن ظهورنا أحيانا وتتدحرج على السلم ، فنهبط إليها لنصعد بها من جديد .
وقالته بث وهى تبسم للذكريات القديمة السعيدة :

— وكان أجمل ما فيها عندما نصل إلى نهاية الرحلة حيث نتحرر من أحمال همومنا ، ونلعب فيما نتخيله حدائق مشرقة بالشمس عامرة بالزهور .

قالت أمي :

— لست أذكر من هذه اللعبة إلا ما كنت أشعر به من خوف شديد ونحن نسير في الظلام ! ثم غبطني البالغة وأنا أجد الكعك واللبن في انتظارنا في الطابق العلوي . ليتنا نعود إلى هذه اللعبة ، ولكننا كبرنا عليها فيما أعتقد .

وكانت أمي في الثانية عشرة من عمرها ، ولكنها كانت تتحدث بلهجة من بلغت منتهى الشباب ، ولم يعد يليق بها أن تشغل نفسها بألعاب الصغار .

فقالت الأم :

— مازلنا نستطيع أن نلعبها يا عزيزتي ، إنما بأسلوب جديد يناسبنا . فتابعنا ما زالت موجودة ، ويبدنا أن نصلح أمورنا ، وسلاحنا في الانتصار شوقنا إلى بلوغ مرتبة السعادة والإيمان . هكذا نصل إلى بر السلام ، فما الرأي في أن نبدأ لعبة الحجاج من جديد ، لا كلعبة نلعبها ، ولكن كعقيدة نؤمن بها ونحمل رسالتها ، حتى إذا ما عاد أبوكن اغتبط بحسن أخلاقكن ونبل أهدافكن ؟

سألت أمي ، وكانت تمول بطبعها إلى أخذ الكلمات بمعانيها الحرفية :

— حقيقة يا أماه ؟ ولكن أين أحمال هومنا ؟

فقلت أمها :

— لقد اعترفت كل واحدة منكن بعيوبها إلا بث ، فليس لديها

ما يثقل ضميرها على ما أعتقد .

قلت بث :

— بل لدى كثير مما يثقل الضمير ، فأنا أكره غسل الصحون ،

وأمقت تنظيف البيت ، وأغار من تملك معزفاً جميلاً ، ثم هناك خجلى

ونفورى من مقابلة الناس .

وكانت هوم بث فى الواقع مضحكة ، ولكن أخواتها استمعن إليها

فى جد خشية أن يزلن شعورها .

قلت مبيح مفكرة :

— سنعمل باقتراحك يا أماه ، فما هو إلا وسيلة إلى إصلاح النفس ،

ولدينا رغبة صادقة فى تقويم اعوجاجنا ، ولكن التنفيذ صعب ، فأحياناً

نسهو عن أداء الواجب ، وأحياناً أخرى نؤديه بغير حماسة .

فقلت چو وقد أيقظ فيها الحديث شوقاً إلى أداء واجباتها كاملة :

— لقد كنا نردى فى الخطأ ، فشاءت والدتنا برحمتها أن تهدينا سواء

السبيل ، فأين كتاب النصائح الدينية لنسترشد به فى سعينا إلى الخير ؟

أجابت مسز مارش قائلة :

— اجبئى تحت وسادتك صباح عيد الميلاد تجدين ما تريدين .

وظل الحديث يدور حول الاقتراح الجديد ، إلى أن انتهت الطاهية حنة من تنظيف المائدة ، فأخرجت كل فتاة سلة تطريزها الصغيرة ، وتسابقت الأنامل في إعداد ملاءة يقدمها هدية لعمتهن مس مارش .

وكن يتبرمن فيما سبق بهذا النوع من التطريز ؛ ولكن واحدة منهم لم تظهر ضيقها به تلك الليلة . واقترحت جوان يطلقن على كل ربع من أرباع الملاءة اسم قارة : فربع أوربا ، وثان آسيا ، وثالث أفريقيا ، ورابع أمريكا . وأخذن بالاقتراح ، فسنن بالعمل مرحات ، وهن يقطن الوقت في الحديث عن البلاد المختلفة التي كانت تمر بها الإبر أثناء العمل .

وعندما بلغت الساعة التاسعة توقفن عن العمل ، ثم أنشدن أغنية اعتدن أن ينجمن بها السهرة كل ليلة . وكانت بث ماهرة في العزف على البيانو ، قديرة على إخضاع أصابعه العتيقة للمسائها القديرة ، فعزفت لهن أنغاماً تناسب الأغنية . وكانت آوى ذات صوت رخيم ، أما جو فلم تكن تحسن الغناء ، فكان صوتها يرتفع أو ينخفض حيث لا يجب أن يرتفع أو ينخفض .

وكن قد تعلمن في طفولتهن أغنية :

« المع . . . المع . . . أيها النجم الصغير »

واعتدن أن ينشدنها كل ليلة حتى كبرن ، وما زلن مخلصات لهذه العادة . وكانت أمهن جميلة الصوت ، يتردد غناؤها بين جدران البيت كل صباح كالكروان . وكما كن يستيقظن على نبراته الحنون كذلك كن ينمن على شجوه الجميل .



الفصل الثاني

عيد سعيد

استيقظت جو مع طلوع فجر العيد ، ونظرت إلى الموقد تبحث عن الجيوب الذي اعتادت أن تتلقاه مليئاً بالهدايا كل عام ، فلما لم تجده شعرت بحزن وكآبة ، ثم عادت فتذكرت ما وعدتها أمها به في الليلة السابقة ، فلمست يدها تحت الوسادة ، وأخرجت كتاباً صغيراً ذا غلاف أحمر وكانت تعرف أنه كتاب الحكم والعظات الدينية ، التي هي أقصر طريق إلى السلام والإيمان ، ففرحت به كل الفرح ، وأسرعت إلى أخيها ميج توقظها ، وتغريها بالبحث عن هديتها . ودست ميج يدها تحت

الوسادة ، وأخرجت بدورها كتاباً أخضر اللون ، خطت عليه أمها إهداء لطيفاً ضاعف قيمته في نفسها ، وكذلك استيقظت بث وآمى ، وأخرجتا كتابيهما ، وكان أحدهما رمادى اللون ، والآخر أزرق .

وعندما جلس الأخوات الأربع يتحدثن عن الكتب ويقابن صفحاتها . كان الأفق قد بدأ يكتسى بلون الورد . مؤذناً بقرب ظهور الشمس .

وكانت مارجریت شديدة التدين ، بالرغم من غرورها اليسير ، وقد تأثر أخواتها بتدينها هذا ، خصوصاً جوالتي كانت تحبها حباً جما ، وتعمل دائماً بنصحها وإرشادها .

قالت ميخ لأخواتها بلهجة الجد :

— لقد كنا شديدات التدين ، حتى سافر أبى ، وغيرت الحرب مجرى حياتنا . فأهملنا كثيراً من مبادئنا الطيبة . وأمى تحب لنا أن نقرأ هذا الكتاب ، ونعمل بهدى تعاليمه الكريمة ، فيصح أن نبدأ في الحال ، وسوف أترك كتابى قريباً من فراشى ، لأقرأ فيه كل صباح ، فأستمد من ذلك قوة على احتمال المشاق والصعاب .

وفتحت كتابها الجديد ، وشرعت تقرأ فيه ، فانحنى چو عليها ، وأحاطتها بذراعها . وألصقت خدها بخدها ، ثم جعلت تقرأ معها ، وقد علا وجهها القلق سماء السكينة والهدوء .

وأخذت بث بروعة الموقف ، فهمست تقول :

— ما أبجل مبيج في خشوعها .. هيا بنا يا آمى نقرأ مثلهما ، وسأساعدك بقدر إمكاني في تفسير الكلمات ، ونهألهما إذا استعصى علينا الفهم .
قالت آمى :

— لقد أحسنت والدتي اختيار لون كتابي ، فأنا أحب اللون الأزرق .
وساد السكون إلا من صوت الصفحات وهي تتحرك بين أصابع البنات بين آن وآخر ، وتملئت أشعة الشمس إلى الغرفة ، فأضاءت رعوس الجالسات وجوهن ، كأنها تقرئن تحية العيد .

وبعد مضي نصف ساعة ، هبطت مبيج الدرج مع أختها چو ، لتشكرا والدتها على هديتها الجميأة ، ولكنها لم تكن في البيت ، فلما استفسرتا عنها الطاهية حنة ، قالت لهما :

— الله أعلم أين ذهبت ، فقد جاءنا صبي صغير يطلب إحساناً ، فخرجت معه ، ولم تعد للآن . إنها ملك للرحمة ، ولا تبخل على سائل بطعام أو شراب أو كساء أو وقود .

وتطلعت مبيج إلى الهدايا التي اشترينها لوالدتها ، وأخفينها عن أنظارها ، في سلة تحت الأريكة ، ثم قالت :

— أرجو ألا تتأخر في العودة . ولكن أين زجاجة الكولونيا التي اشترتها آمى؟ إنى لا أراها في السلة .

وكانت چو قد انتعلت الحذاء الذي اشترته هدية لوالدتها ، وجعلت ترقص به في الغرفة ، وتدور حول نفسها ، بقصد أن تلين جلده اليابس

قلديلا . قالت تجيب أختها :

رأيت أمي تحمل الزجاجة وتخرج بها منذ لحظة ، وأغلب الظن أنها ذهبت لتربطها بشريط جميل .

وقالت بث : وهي تتأمل المناديل التي عانت مشقة كبيرة في تطريزها :

— ما أجمل هديتي ! ألا توافقني على أنها بديعة ؟ لقد طرزت في

أركانها اسم والدتي ، ثم تعهدتها حنة بالغسل والكوي .

وأخذت چو منديلا منها ، لتفحصه عن قرب ، وقالت :

— باركك الله من طفلة طيبة ، لقد طرزت كلمة « ماما » ،

والأصل أن توضع الحروف الأولى من الاسم فقط .

وانزعجت بث لغلطتها ، وقالت بقلق :

— لم أكن أعرف ذلك ، وما كنت أحب أن أخطئ ، ولكني

خشيت أن تختلط هذه المناديل بمناديل ميج ، لتشابه الحروف ، وأنا لا أريد أن يستعملها أحد غير والدتي .

وتضايقت ميج لملاحظة چو التي أحزنت أختها الصغيرة ، وأرادت

أن تزيل أثرها ، فقالت لبث مبتسمة :

— ليس هذا خطأ يا عزيزتي ويسرنى أن كتبت « ماما » ، فإنها

كلمة لطيفة ستغبط لها والدتنا كل الاغتباط .

وطرق آذانهن صوت إغلاق الباب ، وتبعه ديبب أقدام في الردهة ،

فقالت چو :

— رجعت والدتي ، فها ، بنا تسرع بإخفاء السلة .

ولم تكن الداخلة هي الأم بل كانت آمي ، وكانت ترتدى معطفها وقبعها ، مما يدل على أنها كانت خارج البيت ، فسألها ميج متعجبة :
— أين كنت ، وماذا تخفين وراء ظهرك ؟

قالت :

— كنت أستبدل الزجاجة الصغيرة بأخرى كبيرة ، ودفعت في ذلك نقودي كلها ، ولكنني غير آسفة ، فإنها تجربة في إنكار الذات . . .
لاتضحكي مني يا چو ، فقد كنت أحب أن يبقى الأمر سرّاً خافياً عنكن حتى يحين الوقت المناسب فتعرفن به .

وأرهن الزجاجة الكبيرة الجميلة التي اشتريتها بدل الأولى الصغيرة ، وتطلعت إليهن راضية ، وقد أضاء وجهها بعزيمتها القوية التي قهرت بها أنايتها. وتأثرت ميج بما فعلته أختها ، فضصتها إلى صدرها ، كما امتدحتها چو بكلحة طيبة ، أما بث فقد هرعت إلى إص الأزهار ، فاقتطفت أجمل ورودها منه لتزين بها الزجاجة .

قالت آمي :

— بعد أن قرأت جزءاً من كتاب العظات ، وفهمت كيف نكون بنات صالحات ، خجلت من نفسي ، وساءني أن أبجل على أي بنتودي كلها ، فما إن استيقظت ، حتى أسرعرت إلى السوق القريبة أستبدل الزجاجة ، وأنا سعيدة بهديتي الجميلة .

وانصفق الباب مرة ثانية ، فأخفين السلة تحت الأريكة ، وجلسن حول المائدة استعداداً لتناول الإفطار .

وظهرت الأم فصاحت الفتيات تقان في صوت واحد :
 — عيد سعيد يا أماه . بل أعياد كثيرة سعيدة ، وشكراً لك على
 الكتب ، لقد قرأنا اليوم جزءاً منها ، وسوف نفعل ذلك كل يوم .
 قالت :

— عيد سعيد يا بناتي ، ويسرنى أن تحققن ما اتفقنا عليه ، وآمل
 أن تقرأن في الكتب دوماً ، ولكنى أود أن أحدثكن بأمر قبل أن نجلس
 إلى مائدة الإفطار . فعلى مقربة منا تسكن امرأة فقيرة اسمها مسز هامل
 ولديها طفل حديث الولادة بالإضافة إلى ستة أطفال آخرين ، وقد جاءني
 أكبرهم منذ لحظة يشكو إلى ما يقاسون من جوع وبرد ، فذهبت معه
 لزيارتهم فوجدتهم يرقدون جميعاً في فراش واحد ، وليس لديهم نار تدفئهم
 ولا طعام يشبعهم . فما الرأي في أن نعطيهم إفطارنا هذا هدية منا بمناسبة
 العيد ؟

وكان الجوع قد استبد بالفتيات ، بعد أن تأخرن عن تناول الإفطار
 طوال الساعة التي انقضت في انتظار عودة الأم . فخيم عليهن الصمت
 لحظة قصيرة فقط ، قالت بعدها چو ، وهي نهض من مقعدها
 مسرعة :

— من حسن الحظ أننا لم نفطر بعد .

وقالت بث بلهفة :

— أتمسحين لى أن أذهب معك لأساعدك فى حمل الطعام إلى أولئك الأطفال الفقراء ؟

وقالت آمى ، وقد لذها أن تنزل عن أحب الأطةمة إليها :
— وأنا أحمل الفطائر والقشدة .

وكانت مبيج قد شرعت فى تغطية الصحون ، بعد أن جمعت الخبز فى وعاء كبير ، فقالت مسز مارش وهى تبتم فى رضاً واغتباط :
— كنت أعلم أن الفكرة ستلقى منكن ترحيباً ، فهيا بنا نحمل الطعام إلى الأسرة الفقيرة . وعندما نعود ، نقطر بخبز وحليب ، ونعوض النقص فى وجبة العشاء .

وسرعان ما حمل البنات طعام الإفطار ، وخرجن به مع أمهن إلى الطريق فى موكب كبير ، ولحن الحظ كانت الساعة مبكرة ، فلم يلفت موكبهن أنظار الناس .

وبلغن البيت المنشود ، وكانت الأسرة الفقيرة تسكن حجرة عارية من الرياش والأثاث ، يشع الفقر فى جنباتها ، وتخيم عليها مظاهر البؤس والشقاء . وكانت نافذتها محطمة ، وليس بها موقد يخفف من وطأة البرد ، وفى ركن منها سرير عتيق ، ترقد عليه امرأة مريضة سقيمة ، بجوارها رضيع يبكى بالاحاح ، ومن حوله ستة أطفال جياع يلوذون بغطاء واحد مهلهل ، عسى أن يحميهم من البرد .

وما إن شاهد الصغار الجياع الفتيات يدخنن بالطعام ، حتى علت
شفاههم الزرقاء بسمت واهنة . وصاحت المريضة فرحاً ، وقالت بلكنة
ألمانية :



— شكراً لك يا إلهي ، فقد جاء ملائكة الرحمة .

قالت جو تداعبها :

— ملائكة من نوع فريد يرتدين المعاطف والقبعات .

ولم تمض دقائق معدودات إلا وقد تغير الحال : فقد أشعلت الطاهية حنة موقد التدفئة بالوقود الذي أحضرته من البيت ، كما سدت فتحات النافذة المحطمة بقطع من القماش لتمنع تسرب البرد . وسقت مسز مارش الأم المريضة قدحاً من الشاي الساخن وأعقبته ببعض الحساء ، ثم لفت الرضيع بأغطية سميكة وأرقدته بجوار أمه في حنان بالغ . أما البنات فقد هيأن المائدة وزينها بالمأكولات الشهية التي أحضرنها ، وأجلسن الأطفال حولها ، وأطعمنهم بعناية وعطف ، وهن يداعنهم ويصغين ضاحكات إلى رطانتهم الألمانية ولغتهم الإنجليزية الركيكة .

وأقبل الأطفال على الأطعمة الشهية يأكلون منها ويهتفون فرحاً :

— هذا جميل ، ياملائكة الرحمة .

ولم يكن أحد قد وصفهن بالملائكة من قبل ، فارتاحت نفوسهن لهذه التسمية ، خصوصاً جو العفريته ، التي كانت منذ صغرها أبعد ما تكون شهباً بالملائكة . وعندما انتهى الإفطار على ما يرام ، خرج الفتيات الأربع وليس في الدنيا أسعد منهن . وكن يعلمن أنه ليس بالبيت غير خبز وحليب ، وقد اعتدن أن يتناولن في العيد وجبة فاخرة ، ولكن الحرمان زادهن فخراً بقدرتهن على التضحية وإنكار الذات .

وشربن الحليب راضيات ، وأكلن الخبز مغبطات ، ثم قالت ميج :
 — هذا ما أوصى به الدين من رعاية الجار ، وإنها حقاً وصية جميلة.
 وصعدت مسز مارش إلى الطابق العلوى تجمع بعض الثياب القديمة
 لأسرة مسز هامل الفقيرة ، فأخرج الفتيات هداياهن ، ووضعنها على
 المائدة . ولم تكن الهدايا في حد ذاتها أشياء مذكورة ، ولكن منظرها بدا
 وهي مرصوفة حول آنية الأزهار العامرة بالأقحوان الأبيض والورود الحمراء.
 وصاحت چو وهي تقفز فرحاً حول المائدة :
 — ها هي ذى قادمة ، فاستعدى يابث ، وافتحى الباب يا آى .
 اهتفن ثلاثاً تحيةً لأنا .

ذهبت ميج إلى الباب ، وعادت تقود والدتها إلى كرسي الصدارة .
 وعرفت آى أنغاماً موسيقيةً بهيجة ، فتأثرت مسز مارش لحنان بناتها ،
 وازداد تأثرها حتى اغرورقت عيناها بالدموع عندما رأت لفائف الهدايا
 وغلبيها عبارات الإهداء . وارتدت الحذاء لفورها . ودست في جيبها أحد
 متاديل بث بعد أن عطرتة من زجاجة آى ، وشبكت الوردة الحمراء
 فوق صدرها ، ثم جربت القفاز ، وامتلحت لونه وطراره .
 وترددت الضحكات في جنبات الغرفة ، وتبدلت القبلات ، وقصص
 البنات على أمهن كيف اشترين الهدايا في ذلك المرح البريء الخالص
 الذى يجعل من الأعياد أياماً خالدة في عمر الإنسان .
 وانقضت لحظات اللهو وأن أوان الجد ، فعاد أفراد الأسرة إلى العمل

استعداداً لحفل المساء .

وكان الأخوات الأربع يهوين التمثيل إلى حد الشغف ، ولم يكن يسمح لهن بالتردد على المسرح لصغر سنهن ، وكانت مواردهن المالية لا تجيز الإسراف في إعداد تمثيلياتهن الخاصة ، ولكنهن تغلبن على المشكلة بغير عناء ، ونجحن في تحقيق هوايتهن بأقل نفقات ممكنة : فصنعن من ألواح العجين قيثارات مسرحية ، وحولن علب الزبد الفارغة إلى مصابيح منقوشة ، وجعلن من ملاءات الفرش ملابس فخمة طرزتها بقطع معدنية براقية . أما الصفائح القديمة فقد أخرجن منها دروعاً وزرداً للفرسان . وقلبن قطع الأثاث على عقب ، لبناء المسرح المطلوب ، فضربت الفوضى أطناها في الغرفة استعداداً لتمثيلية المساء .

ولم يكن مسموحاً للشبان بالاشتراك مع البنات في التمثيل ، فعهد إلى جو بأدوار الرجال ، وكانت تحب أداء هذه الأدوار ، فترتدى في كل تمثيلية ذات الملابس : عباءة ذات ذيل طويل ، وسيف قصير يتلى من حزام جلدي ، وزوج من الأحذية المسرحية كانت قد أهدته إياها صديقة تعرف بعض الممثلين .

ولما كان عدد الأخوات محدوداً وأشخاص التمثيلية عديدين ، فقد استدعى الأمر أن تقوم الأختان الكبيرتان بأكثر من دور واحد في الرواية . وكان جهداً شاقاً يقتضى منهما حفظ أدوار مختلفة ، مع سرعة في تغيير الملابس : وعجلة في تبديل المناظر ، ولكنه كان جهداً مفيداً

يقوى ذاكرتهما من ناحية ، ومن ناحية أخرى يستنفد أوقات فراغهما في تسلية بريئة ، لولاها لانقضت بهن هذه الأوقات في كسل ووحدة . وفي ليلة العيد حضرت المدعوات ، وكن اثنتي عشرة فتاة ، تزاوجن فوق السرير الذى يقوم مقام قاعة العرض ، وجلسن أمام الستار الملون بالأزرق والأبيض ، يترقبن بدء التمثيلية في شوق وحماسة . ومن وراء الستار كانت تتعالى بعض الهمسات ، وبين آونة وأخرى تسمع ضحكة مكبوتة من آمى ، التى استبد بها الانفعال لقرب الساعة الحاسمة . وما لبث أن دق الجرس ، وانفجرت السائر مؤذنة ببداية التمثيل .

وكان أول منظر يمثل « الغابة الحزينة » ، وقد بذل الأخوات جهداً مذكوراً في إخراج هذا المنظر ، ففرشن أرض المسرح ببساط صوفى أخضر ، انثرت فوقه شجيرات في أصص فخارية وراءها كهف صنع من منضدتين تغطيهما قطعة من اللباد . وكان في داخل الكهف موقد مشتعل ، عليه قدر سود ، انخنت فوقها ساحرة عجوز ، وكان البخار يتصاعد من القدر ، والظلام يسود الكهف ، ونيران الموقد تعكس أضواءها على المسرح ، فتكسب المنظر لوناً من الحقيقة .

ومضت برهة ، ثم دخل الشرير « هوجو » بسيفه المجلجل ، وقبعته الرخوة ، ولحيته السوداء ، وكان يرتدى عباءة غريبة الشكل فضفاضة ، وفي قدميه حذاء جلدى طويل . وبعد أن قطع خشبة المسرح جيئة وذهاباً في قلق وثورة ، ضرب جيئته بكفه ، وراح ينشد قطعة خشنة

يصف فيها بغضه « لرودريجو » وجه « لزارا » ، ويروي كيف أعد العدة لقتل غريمه ، حتى يصل إلى من يجب . وكانت العاطفة تغلب « هوجو » أحياناً ، فينقلب صوته الحشن إلى صياح قوى مؤثر ، نال إعجاب النظارة ، فقابلوه بعاصفة من التصفيق .

وانحنى « هوجو » يرد التحية في حركة طبيعية تدل على الاعتداد بالنفس ، ثم انسل إلى الكهف ، وهوينادى الساحرة قائلاً :

— تعال أيتها الصغيرة ، فإنى محتاج إليك .

وخرجت إليه ميج ، وقد غطت وجهها بشعر أشيب مشعث ، وارتمت ثوباً أسود ، عليه عباءة منقوشة برموز غامضة . وطلب إليها هوجو أن تعد له إكسيراً يجتذب حبيبته ، وسماً يقتل غريمه ، فأجابته بقطعة غنائية مؤثرة تعده فيها بما يريد ، ثم شرعت تنادى الروح الذى سوف يعينها على إعداد إكسير الحب قائلة :

« تعال . . . تعال . . . أيها الروح الأثيرى

« آمرك أن تأتى من عشك البعيد

« يا من ولدت من ورود ، واقتت بالندى الرطيب

« تعال . . . تعال . . . فى سرعة الجن

« تعال . . . وأعطني شراب الحب الجميل

« واجعله حلواً سريعاً قهوراً

« أيها الروح إنى أغنى ، فهل من مجيب ؟ » .

وعلت أنغام موسيقية خافتة ، وظهر من وراء الكهف شبح صغير يلتف في رداء أبيض شفاف ، شعره يلمع ، وأجنحته من الذهب ، وفوق رأسه إكليل من الورد . وروح الشبح بعضا قصيرة ، وجعل يغنى ويقول :

« جئتك يا من تناديني

« من مسكني فوق الرياح

« وراء القمر القمى البعيد

« جئتك أحمل فني وسحري

« في شراب ذهبي عجيب

« فاسقه الحبيبة ولا تبطئ

« واحذر أثره أن يزول » .

وألقى الروح تحت أقدام الساحرة ، زجاجة ذهبية صغيرة ، ثم اختفى وراء الكواليس .

وعادت الساحرة « هاجار » تغنى في طلب روح شرير يعينها على إعداد السم ، وما إن إنتهت من أغنيها حتى ظهر على المسرح شيطان أسود دميم ، وغنى في صوت كنتيقي الضفادع ، ثم ألقى إلى « هوجو » زجاجة سوداء ، ولم يلبث أن اختفى وهو يضحك ساخراً . والتقط هوجو الزجاجتين راضياً وأخفاهما في عتق حذائه الجلدي ، وشكر للساحرة صنعها ، واختفى بدوره وراء الكواليس .

وواجهت « هاجار » النظارة ، وجعلت تصف بغضها « هوجو » الذى

سبق أن قتل أصدقاء لها ، ولذلك فهي تلعنه من صميم قلبها ، وتنوى أن تفسد تدييره ، ولن تسكت حتى تنتقم منه شر انتقام .

وأسدل الستار ، وجلس المدعوات يسترحن ، ويتسلبن بتناول الحلوى والمرطبات ، ويتناقشن فيما رأينه من محاسن التمثيلية الرائعة .

وفي خلال فترة الاستراحة ، تعالت من وراء الستار أصوات المطارق ، ولكن ما إن انفرجت هذه الستائر مرة أخرى حتى أيقن المدعوات أنهن أمام فصل آخر ، لا يقل عظمة عن سابقه : فقد ظهر في وسط المسرح برج مرتفع ، تكاد قمته تصل إلى السقف ، وفي منتصفه نافذة بها مصباح مشتعل ، ومن ورائه ظهرت « زارا » ترتدى ثوباً فضياً ، وترقب الطريق قلقة ، في انتظار حبيبها « رودريجو » .

وجاء « رودريجو » في حلة فاخرة ، وعلى رأسه قبعة من الريش ، ومن كفيه تتدلى عباءة حمراء . وكانت خصلات شعره الكستنائي تنهدل على كفيه ، وكان يحمل قيثاراً في يده ويلبس الخذاء الجلدي الأحمر المعهود . ركع الفتى أمام نافذة البرج ، وجعل ينشد أغنية عامرة بمعانى الحب ، وأجابته « زارا » مغنية ، واستمر الحوار الموسيقي بينهما حتى أقنعا أن تفرعه . وهنا ظهرت قوة الإخراج الفنى ، فقد سحب « رودريجو » من ثنايا عباءته سلماً من الخيال به خمس درجات ، وألقى أحد طرفيه إلى « زارا » يدعوها إلى النزول . وخفت إليه من نافذتها في استحياء ، ثم استندت بيدها إلى كفيه قبل أن تقفز إلى الأرض

برشاقة ، ولكن مأساة غير متوقعة حدثت في تلك اللحظة ، فقد اشتبك ذيل « زارا » بالنافذة فلما قفزت إلى الأرض ، اهترال برج العالى وسقط من عليائه مهشماً فوق العاشقين ! !

وصرخت المثالات والمدعوات على السواء ، وازداد صراخهن شدة عندما رأين قدى « رودريجو » ترقصان من تحت الأنقاض في عنف . ونسيت أمى أنها على المسرح فأطلت برأسها تؤنب چو الراقدة تحت الحطام المهدم وتقول لها :

— لقد حذرتك من هذا البرج فلم تستمعى إلى .

ولكن ذكاء إحداهن أنقذ الموقف ، فقد دخل إلى المسرح « دون بيدرو » ، الحاكم القاسى ، وأسرع إلى ابنته يسحبها من تحت الأنقاض ، ويهمس في أذنها :

— لا تضحكى ، واستمرى في أداء دورك ، كأن شيئاً لم يحدث .

والتفت إلى « رودريجو » بأمره بالنهوض ، ثم أنه ، وطرده من مملكته مهدداً . ولكن « رودريجو » ، رغم ما أصابه بسقوط البرج عليه ، عصى أمر الحاكم ، ورفض أن يترك مكانه ، وأثار شجاعته حماسة « زارا » فأعلنت عصيانها وأمر أبيها ، فغضب الأب وأمر أن يكبل الاثنان بالقيود في قبو قلعته .

ودخلت بث في ثياب أحد جنود « دون بيدرو » تحمل القيود الحديدية وقادت الاثنان أمامها إلى السجن ، ولكن الخوف كان بادياً عليها ، حتى إنها نسيت أن تقول عبارات الدور الذى تؤديه .

وكان النصل الثالث يمثل بهو القلعة . فظهرت الساحرة « هاجار » وكانت قد جاءت إلى القلعة ، لتنقذ الحبيبين ، وتنزل انتقامها « بهوجو » وسمعت وقع أقدامه يقرب منها ، فاخفت في جانب من المسرح ودخل الشرير « هوجو » يحمل الزجاجتين ، وصب محتوياتهما في كأسى شراب ، وأمر الخادم أن يحملهما إلى المسجونين ، وينتحي الخادم جانباً « بهوجو » ليسر إليه بكلمات خافتة ، فتخرج الساحرة « هاجار » خلصة ، وتستبدل الكأسين بكأسين آخرين ليس فيهما ما يضر ، ثم يعود الخادم فيحمل الكأسين وينصرف بهما إلى القبو . وتحين لحظة الانتقام ، فترك « هاجار » الكأس العامرة بالسم في متناول يد « هوجو » ويكون الشرير في هذه الآونة مشغولاً عن الساحرة بالقاء مقطوعة غنائية ، وعندما ينتهى منها ، يستبد به العطش ، فيتناول الكأس المسمومة ويجرع ما فيها بلهفة . ويسرى السم في بدنه فيتأوى ويتأوه ، ولا يلبث أن يسقط على الأرض صريعاً ، فتخرج إليه « هاجار » من مخبئها وتحذته بما فعلته به انتقاماً لأصدقائها .

وكان المنظر قوياً بحق ، رغم الأخطاء البسيطة التي تخللته ، فصفق النظارة طويلاً ، وألحوا في تحية البطلين ، حتى ظهر « هوجو وهاجار » وردوا تحية الجمهور باحشاء لطيفة .

وارتفع الستار عن الفصل الرابع من الرواية فظهر « رودريجو » يائساً بعد أن خدعوه ، فأوهموه أن « زارا » قد هجرته ، وبلغ به اليأس

أن استل خنجره ، ليقتل به نفسه ، وقبل أن يصل النصل إلى صدره ، يسمع غناء شجياً يفهم منه أن « زارا » ما زالت مبقية على عهده ، وأنها في خطر جسيم ، لن ينقذها منه سواه ، ويلقى صاحب الغناء إليه بمفتاح السجن ، وتظهر الحقيقة لرودريجو ، وينحه الخوف على حياة حبيبته قوة مضاعفة ، فيتمطى في حركة هرقلية ، تتحطم على أثرها أغلاله ، فيخرج من السجن حراً طليقاً .

ويحوى الفصل الأخير مشهداً عنيقاً بين « زارا » وأبيها « دون بيدرو » فهو يريد أن تذهب إلى الدير ، وهي ترفض باكية مستعطفة حتى تكاد تسقط مغشياً عليها ، وعندئذ يقتحم رودريجو المشهد ، ويطلب يدها من أبيها ، فيرفض « دون بيدرو » أن يزوج ابنته بفقرير مثله . وتحتد المناقشة بينهما بلا جدوى . ثم تشاء الأقدار أن تسعد الحبيب الفقير ، فيدخل الخادم « فرزندو » يحمل رسالة وكيساً ، بعثت بهما الساحرة « هاجار » . ويعلم « رودريجو » من الخادم أن « هاجار » تركت له ولحبيبته ثروة طائلة ، وأنها تهدد « دون بيدرو » بشر مستطير ، إذا هولم يوافق على زواجهما . ويفتح « رودريجو » الكيس فيتساقط منه على أرض المسرح سيل من الذهب البراق يغتبط به « دون بيدرو » فيرجع عن عناده ، ويرحب بالفتى زوجاً لابنته . ويشترك الممثلون جميعاً في أغنية مرححة ، ينسدل على أثرها الستار و « دون بيدرو » يبارك الحبيين في عطف وحنان .

وهبت عاصفة من التصفيق ، ولكنها انقطعت فجأة ، فقد تداعى
 السرير الذى يجلس عليه النظارة بمن فوقه ، وشغلهن الصراخ عن سابق
 إعجابهن بالرواية ، وأسرع « دون بيدرو » و « رودريجو » لإنقاذ
 المدعوات من تحت السرير ، وقد كدن يفقدن النطق لكثرة الضحك .
 وعندما هدأت الأنفاس وخف الانفعال ، دخلت الطاهرة حنة
 تحمل إلى الموجودات نحيات مسر مارش ، وتدعوهن باسمها لتناول
 العشاء .

وكانت المائدة مفاجأة لبنات مارش الأربع ، فتطلعن إليها فى
 دهشة بالغة ، وقد رأين ما حوت من لذائد تفوق فى كثرتها وتنوعها
 ما اعتدن عليه أيام الرخاء : كان عليها صحنان كبيران مليئان بالمشاجات
 البيضاء والوردية ، وحوطما انتشرت أطباق الفطائر والكعك والحلوى على
 مختلف أشكالها ، فضلا عن أربع باقات من الأزهار النادرة .

واحتبست الأنفاس فى صدورهن لفرط العجب ، وانتقلت أنظارهن
 فى تساؤل بين المائدة الفاخرة وبين وجه الأم الباسمة فى غبطة وانسراح .

قالت آى :

— ياللمعجزة !

وقالت بث :

— إنه سنتا كلوز !

وابتسمت ميج ابتسامة عذبة وقالت :

— إنها هدية والدتي .

فصاحت چو كأنما هبط عليها الوحي فجأة :

— بل هدية عممتنا مارش ، وأعتقد أنها أصيبت بنوبة من الخنان ،

فأرسلت إلينا هذا العشاء !

فقال مسز مارش :

— لم تصب واحدة منكن في حدسها ، فهذه هدية مستر لورنس

العجوز .

قالت ميج في عجب :

— جد لورنس الصغير ؟ ترى ما الذى دفعه إلى ذلك ، ولسنا

على معرفة به ؟

قالت مسز مارش :

— يبدو أن حنة حدثت خادماً له بقصة تنازلكن عن إفطاركن

لمسز هامل الفقيرة ، فنقل الخادم القصة إلى سيده . وقد سر مستر لورنس

لصنيعكن ، فبعث إلى بعد ظهر اليوم رسالة يستأذنى فيها أن أسمح له

بالتعبير عن بعض عواطفه الودية نحوكن ، فأقبل منه الأطعمة الشبهة

تكريماً لهذا اليوم . ولم يطاوعنى قلبي على الرفض ، لأنه كان صديقاً لأبى

فيما مضى من الأيام . هذا سر الوليمة ، ولعل فيها أعظم تعويض عن خبز

الصباح وحليبه .

وبينما كانت صحون الحلوى تدور على البنات وضيقاتهن ، والمثلجات

تمخني تدريجاً في الأفواه الصغيرة النهمة ، قالت چو :

— أنا واثقة من أنها فكرة الصبي أقنع جده بها . إنه صبي ممتاز وإن كان شديد الحجل ، ويا حبذا لو تعرفنا إليه ، واتخذنا منه صديقاً لنا ، وطالما شعرت بأنه يتوق بالمثل إلى صداقتنا ، ولولا تزمتم ميج كنت بادلته الحديث منذ زمن طويل ، ولكنها كانت تمنعني من ذلك ، وتدكرني دائماً بدواعي العرف والتقاليد .

سألت إحدى الفتيات قائلة :

— أنتحدثين عن أولئك القوم الذين يسكنون البيت الكبير المجاور لكم؟ إن والدتي تعرف مسر لورنس العجوز ، ولكنها تقول إنه متكبر يكره الاختلاط بيجيرانه ، وله أساليب عجيبة في تربية حفيده الوحيد ، فهو يمنعه من الخروج إلا على صهوة جواده، أو في رفقة مربيه ، كما أنه يفرض عليه العلم والدرس فرضاً، ويعمل جهده على إبعاده عن أترابه من البنين والبنات . وأذكر أننا دعونا مرة إلى وليمة أقمناها ببيتنا ، ولكنه لم يحضر .

قالت چو في عزم :

— إنه صبي مهذب ، وقد هربت قطتنا يوماً إلى حديقته ، فأحضرها لي ، وتبادلنا الحديث عبر السياج ، وكان حديثاً شائقاً عن الألعاب الرياضية ، ولكن ميج أقبلت فجأة فانصرف عني مسرعاً . إني أعطف عليه وأود من صميم قلبي أن أعرف إليه ، وأعتقد أنه في أشد

الحاجة إلى أصدقاء يؤنسون وحدته ويذهبون وحشته .

قالت مسز مارش :

— وأنا أراه مهذباً كريم الأخلاق ، ولا مانع عندي من أن تتعرفى إليه في أول فرصة مواتية ، فلقد جاء بنفسه يحمل باقات الأزهار ، وولست فيه ميلا إلى قضاء السهرة معنا ، وكنت أود أن أستبقيه ، ولكنى لم أكن أدري ماذا تفعلين في الطابق الأعلى على وجه التحقيق .

فضحكت جو وهي تنظر إلى حذاءها الطويل ، وقالت :

— حسنا صنعت يا أماء ، فتمثيلية الليلة لم تكن على ما ينبغي ، ولكننا قد نقوم قريباً بتمثيل رواية أخرى أفضل من هذه ، فندعوه إليها ، وربما أشركناه معنا في تمثيلها .

قالت ميج وهي تتأمل باقة الأزهار معجبة :

— إنها أول مرة تأتيني فيها أزهار نادرة كهذه .

فقالت مسز مارش وهي تشم الوردة الذابلة التي أعطتها إياها بث

في الصباح :

— إن أزهار مسر لورنس جميلة ، ولكن وردة بث أجمل وأبدع .

فهمضت بث إلى أمها تشكرها وقالت تهمس في أذنها :

— ليتنى أستطيع أن أبعث بأزهارى إلى أبى ، فلست أظن أنه

يقضى في الميدان عيداً سعيداً كالذى نستمتع اليوم به .



الفصل الثالث

لورنس الصغير

وقفت ميج عند أسفل السلم تنادى :

— چو . . . چو . . . أين أنت ؟

أجابت چو من الطابق العلوى :

— هنا .

وصعدت ميج السلم جرياً ، فوجدت أختها تقبع فى ركن من الأريكة العتيقة ، ذات الأرجل الثلاث ، وهى تأكل تفاحة ، وقد اغرورقت عينها بالدموع لفرط تأثرها بالقصة المحزنة التى تقرأها . وكان هذا الركن ملاذ

چو المفضل ، كلما أعوزها الهدوء هرعت إليه ومعها بضع تفاحات وكتاب لطيف ، فتقضى فيه الوقت وحيدة ، لا أنيس لها إلا «سكرابل» ، ذلك الفأر الأليف ، الذى اتخذ له جحراً بالقرب من الأريكة ، واعتاد أن يسكن إلى چو ، فيطوف حولها فى غير حرج . وما إن ظهرت ميج حتى أسرع الفأر هارباً إلى جحره ، ومسحت چو دموعها ، والتفتت إلى أختها مستفسرة .

قالت ميج وهى تلوح بورقة فى يدها :

— هاك بطاقة رسمية بعثت بها إلينا مسز جاردنر تدعوننا فيها إلى وليتها مساء غد . . . انظرى ! .

وشرعت تقرأ الدعوة فى مرح وحماسة :

— «يسر مسز جاردنر أن تتشرف بدعوة الأنتين مارجريرت وچوزفين مارش إلى حضور المرقص الذى تقيمه احتفالاً بليلة رأس السنة الجديدة» . . . والدتى لا تمانع فى ذهابنا . . . خيرينى ماذا نرتدى غداً ؟ .

أجابت چو وفهما محشو بالتفاح :

— كيف تسألينى وأنت تعلمين جيداً أنه ليس لدينا سوى ثوبينا البوبلين ؟

فتنهدت ميج وقالت :

— ليتنى أملك ثوباً من الحرير . ولكن هيهات فوالدتى لا تريد أن

ألبس الحرير قبل أن أبلغ الثامنة عشرة من عمري ، وما زال أماًى عامان
طويلان حتى أبلغ السن الموعودة .

قالت چو :

— البوبلين لا يقل جمالا عن الحرير ، وثوبك يكاد يكون جديداً ،
أما أنا فقد أفسدت ثوبى ، فحرقته من الخلف ، ومزقه من الأمام ،
فاذا أنا صانعة الآن ؟ إن الحرق كبير ملحوظ ولن أستطيع إخفائه .

قالت :

— اجلسى طول الوقت ، وأسندى ظهرك إلى المقعد حتى لا يراه
أحد ، فالصدر لا بأس به . لقد وعدتني أمى بمشبكها اللؤلؤى ، وأرى
أن أزين شعرى بشريط جديد ، ومن حسن الحظ أن حدائى جميل ،
أما قفازى فى حالة جيدة على كل حال .

ولم يكن من طبع چو أن تحرص على أناقتها فقالت :

— أما قفازى فقد أفسدته منذ أن سكبت عليه شراب الليمون ، وليس
معى نقود أشتري بها قفازاً آخر جديداً ، فلا مفر من أن أذهب بغير قفاز .

صاحت مبيج فى استنكار :

— لا يمكن أن تنهينى بغير قفاز ، وإن فعلت ذلك لن أذهب
معلك ، إن القفاز جزء لا يتجزأ من أناقة الهندام ، ولا يجوز الرقص بدونه ،
فاللبسى بالله واحداً وإلا قتلتى الخجل منك .

قالت چو :

— إذا كان الأمر كذلك فلن أرقص ، ويكفينى أن أجلس مكانى

طوال السهرة ، ولست على كل حال من هاويات الرقص ، ورأيت أن
اللف والدوران مضيعة للوقت .

قالت ميج :

— إنك مهملة في العناية بثيابك ، ويوم أفسدت قفازك أنذرتك
والدتي بأنها لن تشتري لك غيره طوال الشتاء ، فلا تتوقى أن تأتيك بجديد
لأنه غالى الثمن . أفلا يمكنك أن تتداركى الموقف بحال من الأحوال ؟
قالت :

— ليس أمامي إلا أن أمسك به في يدي حتى لا تظهر البقع .
أو هناك فكرة أخرى ، فما دام قفازك في حالة جيدة ، أعطني فرداً منه
وأعطيك فرداً من قفازي ، ونلبس النظيف ونمسك بالمبجع .

وكانت ميج شديدة العناية بملابسها وأدوات زينتها ، فعز عليها
أن تعير قفازها لحو ، خشية أن تفسده بإهمالها فقالت :

— يدك أكبر من يدي فإن لبسته اتسع .

صاحت چو بضيق ، وقد استقر رأيها أن تعود إلى قراءة كتابها :

— إذاً أذهب بغير قفاز ، ولا يهمنى ما يقول الناس .

قالت ميج منزعجة :

— خذى قفازي إذا أردت ، ولكنى أرجوك رجاء حاراً أن تحافظي

عليه ، وأن تحافظي على مقتضيات الأنوثة ، فلا تضعي يديك
وراء ظهرك ، ولا تحملتي في وجوه الناس ، وإياك أن تنطقي بألفاظ

عامية كما اعتدت دائماً أن تفعلني .

قالت :

— اطمئني فساكون عند حسن ظنك ، ولن أحشر نفسي في المآزق ما أمكن ، فاكتبي لمسز جاردنر واشكريها على دعوتها الكريمة وأخبريها بأنه يسرنا أن نلبها ، والآن ، اذهبي ودعيني أكمل قراءة هذا الكتاب البديع .

وكتبت ميخ الخطاب المطلوب ، ثم جلست تغني في صوت خافت جميل ، وهي تصلح ثوبها ، وتضيف إليه بعض التحسينات ، حتى أتمت چو قراءة قصتها ، وأتت على بقية تفاحاتها ، وانتهت من مداعبة فأرأها العزيز « سكرابل » .

وفي ليلة الحفل ، أقفر بهو آل مارش من سكانه الذين اعتادوا أن يجتمعوا فيه كل مساء ، فقد انشغلت الفتاتان الصغيرتان بمساعدة أختيهما في الاستعداد للرقص ، وكان البيت في هرج ومرج ، فواحدة تهبط السلم مسرعة ، وثانية تصعده قفزاً ، وثالثة تدلى بملاحظتها ، ورابعة تضحك مغتبطة . وقد رأت ميخ ، استكمالاً لأناقها ، أن تسدل خصلة من شعرها فوق جبينها ، فتنطوحت چو بمعاونتها على ذلك ، وأتت بمكواة الشعر الساخنة تلف حولها الخصلة حتى تنسدل على جبين أختها في شكل جميل . وكانت المكواة أكثر سخونة مما يجب ، فما التفت الشعر حولها ، حتى فاحت رائحة الحريق وتصاعد دخان خفيف . ورأت بث

ما حدث فسألت أختها :

— يتصاعد الدخان دائماً هكذا عند كى الشعر ؟

أجابت چو :

— بل هي رطوبة الشعر تتصاعد في بخار .

قالت بث وهي تتحسس خصلات شعرها الجميل باعتزاز :

— ما هذه الرائحة العجيبة ؟ كأنى أشم ريشاً يحترق .

فقالت چو ، وقد أوشكت أن تنتهى من عملها :

— عندما أسحب المكواة من بين الشعر ، سترين الحلقات

الجميلة تحيط بجبينك كالتاج .

وسحبت المكواة من شعر أختها ، فلم تظهر الحلقات الجميلة التي

وعدت بها ، إنما كان الأمر بالعكس ، فقد سقطت الخصلة كلها ،

محترقة على مائدة الزينة .

وصاح الأخوات في فزع وذعر ، وصرخت ميج منزعجة لما حل بها ،

قالت في أسى بالغ :

— ماذا صنعت بشعري ، لقد أفسدته ، وحرقت أجمل خصلة منه ،

فكيف أذهب إلى المرقص بهذا الشكل ؟ أواه يا شعري ! أواه يا شعري !

وانهمرت الدموع من عيني چو ، لفرط أسفها على ما بدر منها

دون قصد ، قالت :

— إنه النحس الذي يلازمى دائماً ، لبتك ما طلبت منى أن أكوى

شعرك . إني أفسد كل ما تمتد إليه يدي ، وهذه محنتي . فتقبلي معذرتي وأسفني ، وثقني أنني لم أكن أعلم أن المكواة ساخنة إلى هذا الحد .
فقالتم آمي تعزى أختها ميج :

— لم يفسد شعرك كما تتصورين ، ونصيحتي أن تعقصبه بشريط كبير يخفى أطرافه المحترقة ، وسيبدو بذلك مصففاً على أحدث طراز ، فقد رأيت أئنيقات كثيرات يصففن شعورهن بهذا الشكل .
قالت ميج في ندم :

— ليتني تركت شعري على حاله ، ولكنني أردت أن أبالغ في التأنيق ، فحجوزيت على غروري أسوأ جزاء .

ونهضت بث من مقعدها وانحنت على أختها تقبلها وقالت :
— صدقت ، فقد كان شعرك جميلاً ، وما كنت في حاجة إلى نجعيده ، ولكن خلى عنك ، فبعد قليل يطول ويستعيد رونقه القديم .
وأتمت ميج زينتها ، وتعاونت الأسرة كلها على تصفيف شعر جو العزيز ، وساعدها أخواتها في ارتداء ثوبها ، وكانت ميج تلبس قبعة من الخمل الأزرق ، وثوباً فضي اللون ، لمع على صدره مشبك أمها للولوى ، وكانت جو ترتدي ثوباً أحمر اللون ، له بنيقة بيضاء مرتفعة ، زينه زهرتان من الأقحوان الأبيض . ولبست كل واحدة منهما فرداً من لقفاز السليم وأمسكت بفرد من القفاز القدر في رشاقة طبيعية أخفت أسر الحقيقي في هذا التوزيع . وهكذا بدت الفتاتان على بساطة

هندامهما ، آية في الأناقة والذوق السليم .
 وكان حذاء ميج ذو الكعب العالى ضيقاً يؤلم قدميها ، وكانت
 چو تحس كأن مشابك شعرها تنغرس في جلد رأسها ، ولكن هذه المتاعب
 بدت ثمناً رخيصاً للأناقة التي تنشدانها .

قالت مسز مارش تودع بنتيها :

— أرجولكما سهرة ممتعة . لا تسرفا في الأكل ، وسأبعث إليكما
 حنة في الحادية عشرة ، لتعود بكما إلى البيت .
 وخرجت الفتاتان إلى الطريق ، فأطلت عليهما مسز مارش من
 النافذة ، وقالت :

— أمعكما مناديل يد جميلة ؟

فصاحت چو ضاحكة :

— معنا مناديل جميلة جداً ، ومنديل ميج معطر بماء الكولونيا .
 والتفتت إلى أختها وقالت لها :

— لو زلزلت الأرض زلزالها ، ما نسيت أُمى أن تسألنا عن المناديل .

وكانت ميج ذات طابع أرستقراطي ، قالت :

— إنه سُرّال هام ، وهي محقة فيه ، فما من سيدة أنيقة تهمل العناية
 بجذائها وبقمازها ومنديلها .

وأخيراً دخلت الأختان بيت آل جاردنر ، وفي الردهة ، وقفت

ميج أمام المرأة ، تتأمل صورتها راضية . قالت لحو :

—أترين وشاحي منظمأ ؟ وهل يبدو شعري فظيماً ؟ تذكرى أن
تحقى ظهرك عن العيون ، فالحرق واضح فى ثوبك .
أجابت چو ، وهى تعدل بنيقمها ، وتسرى شعرها :
— سوف أنسى بلا شك . فإذا رأيت عيباً فى مسلكى ، اغمزى لى
بعينك حتى أنتبه له .

قالت ميج :

— إن السيدة المهذبة لا تغمز بعينها ، فيكفى أن أرفع حاجبي إذا
أخطأت ، وأوى برأسى إذا أحسنت . والآن ارفعى كتفيك ، وسيرى فى
خطوات قصيرة ، وإياك أن تصافحى الناس بيدك ، فى ذلك خروج
على دواعى الأدب .

قالت چو :

— بالله كيف تعلمت كل هذه الأصول ؟ من العسير أن أحفظها
مثاك .

وتقدمت الفتاتان إلى بهو الرقص فى بعض الحجل ، لقلّة ارتيادهما
مثل هذه الحفلات . واستقبلتهما مسز جاردنر فى عطف وترحيب ، ثم
عهدت بهما إلى سالى كبرى بناتها الست . وكانت ميج تعرف سالى من
قبل ، فسرعان مازال خجلها ، ولكن چو لم تكن بطبعها تأنس إلى
صحبة البنات ، أو تجد فى حديثهن تسليّة ، فوقفت بجوار الحائض تحقى
ظهر ثوبها عن العيون ، وقد أحست أنها وحيدة غريبة فى مثل هذا الوسط .

وحانت منها نظرة إلى الجانب الآخر من الغرفة ، فرأت ستة فتیان يتحدثون عن رياضة الانزلاق ، فتمنت لو كان في استطاعتها أن تلتحق بهم وتشارك معهم في حديثهم . فأشارت إلى أختها برغبتها ، ولكن حاجب الأخت ارتفع في تحذير شديد ، فلزمت جومكانها ولم تجرؤ على تحقيق أمنيتها .

وظلت تقف وحدها بجوار الحائط ، ولا من يبادلها الحديث ، وخرج المدعون من البهو تبعاً ، فلم يبق في المكان غيرها . وكانت تخشى أن تتحرك من مكانها حتى لا يظهر الحرق الأسود في ثوبها ، فقنعت بالمشاهدة من بعيد . وبدأ الرقص ، فلم تلبث ميج أن وجدت رفيقاً يقودها إلى الحلبة ، وجعلت ترقص معه في سرعة ومرح ، لا يمكن لأحد معهما أن يتصور كم تعاني في الحقيقة من ضيق حذاءها .

ورأت جوشاباً أحمر الشعر يتقدم نحوها ، وخشيت أن يكون قد اعترم دعوتها إلى الرقص ، فانسلت إلى الغرفة الصغيرة المجاورة ، واختفت وراء ستائرها . بحيث يمكنها أن تسترق النظر إلى الراقصين وهي في مأمن من العيون . ولكن شاء حظها العائر، أن تجد وراء الستائر شخصاً خجولاً مثلها ، لاذ هو الآخر بالخبأ هرباً من الناس . وكان هذا الشخص هو لورنس الصغير . فقالت وهي تحاول أن ترتد على أعقابها في سرعة :
— ظننت المكان خالياً .

فضحك الفتى وقال في مرح يخالطه بعض الخجل :

— ابقى هنا إذا شئت ، وانسى وجودى .

قالت :

— ألا يزعجك أن أفسد عليك عزلتك ؟

قال :

— أبدأ . فابلجأت إلى هذا المكان إلا لأنى لا أعرف أحداً من

المدعوين .

قالت :

— وأنا مثلك ، فأرجو أن تبقى ، إلا إذا كنت تفضل أن تكون

وحيداً .

وجلس الفتى بوقار . فقالت چو فى تلتطف :

— أظن أننى تشرفت برؤيتك من قبل ؟ فأنت تسكن بجوار بيتنا .

قال :

— بل نحن أقرب جيران لكم .

وضحك بمرح ، وقد تذكر يوم أعاد إليها قطتها . فتحدثت إليه

عن الألعاب الرياضية . واغتنبت بضحكه ، فضحكت بدورها وقالت

بحرارة :

— لست أدرى كيف أشكرك على هديتك فى العيد .

قال :

— إنها هدية جدى .



قالت :

— ولكنها فكرتك . وأكاد أكون واثقة من ذلك .

قال الفتى فى مرح مكبوت :

— كيف حال قطتك يا آنسة مارش ؟

قالت :

— بخير يا مستر لورنس ، ولكنى أفضل أن تنادىنى « چو » دون

اللقاب .

أجاب :

— وأنا لست أدعى مستر لورنس بل لورى فقط .

قالت تردد اسمه :

— لورى لورنس ! ياله من اسم غريب

قال :

— اسمى الكامل ثيودور لورنس ، ولكنى لا أحب هذا الاسم لأن

زملائى فى المدرسة كانوا يختصرونه إلى « دورا » فطلبت لإيهم أن

يدعونى « لورى » .

قالت :

— إذا كنت تكره اسمك ، فأنا كذلك أكره اسمى ، وأعتقد أنه

اسم شاعرى وأفضل أن يدعونى الناس چو بدل چوزفين . ولكن ، كيف

أقنعت زملاءك بتغيير اسمك إلى « لورى » ؟

— أقنعتم بالضرب .

أجابت چو في أسف :

— ولكنى لا أستطيع أن أضرب عمى مارش . وليس أمامى سوى

الصبر .

سألها :

— ألا تحبين الرقص يا آنسة چو ؟

ونظر إليها كأنما أعجبتة كلمة « آنسة چو » ، فقالت :

— أحبه إذا كانت الحلبة متسعة ، ولكنها ضيقة في هذه الليلة ،

وأخشى إذا رقصت أن أدوس على أقدام الراقصين ، أو أقلب الموائد

بخشونتى المعهودة ، فن الخير أن أكفيهم شرى ، وأترك الميدان لميج

تصول فيه وتجول . ألا ترقص أنت ؟

قال :

— أحياناً . ولكنى لم أرقص الليلة خشية أن أخطى ، فأنا أجهل

أساليب الرقص عندكم ، لأننى عشت سنوات في الخارج .

صاحت چو بحماسة :

— في الخارج ! ؟ حدثنى إذا بما رأيت في البلاد الأخرى ، فأنا

جد مشغوفة بأخبار الأسفار والرحلات .

ولم يعرف من أين يبدأ الحديث ، ولكن أسئلة چو سهلت له

مهمته ، فانساق يقص عليها كيف تعلم في مدرسة فيقاي بسويسرا ،

حيث لا يلبس التلاميذ قبعات على الإطلاق ، وحيث يقتنون أسطولا من القوارب الشراعية يمرحون بها في البحيرة . وحدثها كيف كانوا يقومون بالرحلات مع أساتذتهم في مختلف بلدان سويسرا خلال العطلة المدرسية .

قالت چو :

— ليتني أزور هذه البلاد ، هل ذهبت إلى باريس أيضاً ؟

قال :

— قضينا فيها الشتاء الماضي .

سألته :

— أتتكلم الفرنسية ؟

قال :

— إنها اللغة الوحيدة التي كنا نتكلم بها في فيشاي .

قالت :

— إذاً أسمعني جملاً منها ، لأنني أقرأ الفرنسية ولكني لا أعرف

نطقها الصحيح .

سألها بالفرنسية :

— من تكون تلك الشابة الصغيرة ذات الحذاء الجميل ؟

قالت :

— تعجبني لهجتك الفرنسية السليمة ، وقد فهمت الجملة كلها

والآنسة التي تسأل عنها ، هي أختي مارجریت . ألا تعتقد أنها جميلة ؟
أجاب :

– نعم . وتذكرني نضارتها بالألمانيات ، ويعجبني أسلوبها الممتاز
في الرقص .

واغتبطت چو لكلامه كل الاغتباط ، وسرها أن تسمع مديح
أختها من شاب مهذب مثل لورى . وجلس الاثنان فى صمت ،
يشاهدان الراقصين والراقصات ، ويتسامران بإبداء الملاحظات ، كأنهما
صديقان قديمان طالت بهما المعرفة سنين . وتخلي لورى عن خجله أمام
صراحة چو وبساطتها ، واستعادت چو ثقها بنفسها . فنسيت ثوبها ،
وسرها أن شغل الرقص أختها عنها فلم ترفع لما حاجبها محذرة مؤنبه . وقد
زادتها المعرفة إعجاباً بلورى ، فتأملته بدقة عدة مرات ، حتى يمكنها
أن تصفه وصفاً مسهباً لأخواتها فيما بعد ، وكانت تعلم أنهن يرحبن
بذلك لحرمانهن من الأخ ولقلة عدد الذكور فى العائلة ، مما جعل الفتیان
مخلوقات مجهولة لمن .

وجعلت ، فيما بينها وبين نفسها ، تردد أوصافه : شعر أسود مجعد ،
وبشرة تميل إلى السمرة ، وعینان سوداوان واسعتان ، وأنف طويل حاد ،
وأسنان منتظمة ، وقامة فى مثل قامتها ، ثم أدب جم ومعشر لطيف .
ترى كم يبلغ من العمر ؟ وكاد السؤال يفلت من بين شفيتها ، ولكنها
حبسته فى آخر لحظة بلباقة غير معهودة فيها . وكانت تريد أن تعرف

عمره ، فجعلت تلف وتدور حول الموضوع لعلها تصل إلى بغيتها في كياسة وأدب . قالت :

— أتلتحق بالجامعة عن قريب ؟ إلى أراك « تصمّ » الدروس .

وتداركت خطأها باستعمال هذا اللفظ العامي ، فقالت :

— أقصد أنك تذاكر كثيراً .

هز كتفيه وقال :

— مازال أمامي عامان أو ثلاثة حتى ألتحق بالجامعة . فالقوانين

الجامعية تحتم أن أكون في السابعة عشرة .

وكانت قامته الطويلة قد خدعتها فظنت أنه بلغ السابعة عشرة .

قالت :

— أما زلت في الخامسة عشرة ؟

قال :

— سأبلغ السادسة عشرة في الشهر القادم .

قالت :

— ليتني أستطيع أن ألتحق بالجامعة ، ولكنني لست أراك متحمساً

لها ، أفلا تحب أن تنتظم في صفوفها ؟

قال :

— إني أكره الجامعات ، فالحياة فيها لا تخرج عن العمل والمشاكاة

ولست من المغرمين بمشاكاة شباب هذا البلد .

سألته :

— وماذا تحب أن تفعل ؟

قال :

— أفضل أن أسافر إلى إيطاليا أعيش فيها كما يحلو لي .

وكانت حوتتمنى أن تعرف ما الذى يحلو له ، ولكنه كان مقطباً في هذه اللحظة ، فلم تجرؤ على الاسترسال في الموضوع . ورأت أن تغير الحديث فقالت :

— إن فرقة الموسيقى تعزف رقصة البولكا ، فلم لا تذهب وترقص ؟

قال : وهو ينحني أمامها بطريقة فرنسية رشيقة :

إذا قبلت أن تكونى رفيقتى في الرقص .

قالت :

— لا يمكن ، فقد وعدت ميج أن أبتعد عن الرقص لأن . . .

وأمسكت عن الكلام ، ولم تحدّثه بالسبب ، واكتفت بأن ضحكت

في مرح ، فقال يلح في السؤال :

— لأن ماذا ؟ ؟

قالت :

— أتكنم السر ؟

قال :

— من غير شك .

— من سوء الحظ أنني اعتدت أن أقف بجوار الموقد وظهري إلى النار ، فكان أن احترق ثوبي ، ولم يجد الإصلاح فيه ، ولذلك وعدت ميج ألا أتحرك من مكاني ، حتى لا يرى الناس مكان الحرق في ظهر ثوبي . إنه أمر يدعو إلى الضحك ، ولا بأس من أن تضحك إذا شئت .

ولكن لوري لم يضحك . وسكت قليلا يفكر ، ثم قال وفي عينيه نظرة حيرت الفتاة :

— نستطيع أن نحل المشكاة ، إذا رقصنا في هذا الممر الطويل ، بحيث لا يرانا أحد .

واغبتت چو للفكرة . وقامت ترقص معه ، وكان البهو خالياً ، فراحت تتبع أنغام البولكا في براعة ورشاقة . وعندما انتهت الموسيقى جلس الاثنان يستريحان على درجات السلم ، وعاد لوري يتحدثها بالأعياد في هايدلبرج . وكيف يحتفل الناس بها هناك . وأقبلت ميج تبحث عن أختها ، فلما رأتها على الدرج ، أشارت إليها تستدعيها ، فقامت چو من مكانها متثاقاة ، وسارت وراء أختها إلى حجرة جانبية . وارتمت ميج فوق الأريكة ، وقد أمسكت بقدمها في ألم بالغ ، وقالت وهي تتأوه وتتلوى :

— انثني كعب الخذاء تحتي ، فالتوت قدمي ، وأشعر بألم فظيع ، يعجزني عن الوقوف ، فعبريني كيف أعود إلى البيت .

قالت چو وهي تداك قدم أختها في رفق :

كنت أتوقع أن يؤذيك هذا الخذاء ، وأنا آسفة لما أصابك .
وأرى أن نعود إلى البيت في عربة .

قالت ميج :

— مستحيل ، فكل العربات الموجودة خاصة بالمدعوين ، ولكي
نستأجر واحدة ، يجب أن نسير إلى الموقف البعيد . ولا أستطيع ذلك في
حالي الراحنة ، ولن نجد من يحضر لنا واحدة .

قالت چو :

— أنا أحضرها .

قالت ميج :

— لا تذهبي . فالوقت متأخر والطرقات مظلمة . والأفضل أن
أستريح قليلا حتى تأتي حنة فأحاول أن أعود معها إلى البيت .

قالت چو ، وقد عرضت لها فكرة طيبة :

— سأطلب من لورى أن يحضر لنا عربة .

قالت ميج :

— لا . . . لا تجبرى أحداً بالأمر ، أحضري لي خفي المطاط

وضعي هذا الخذاء مع بقية ملابسنا ، فلن أستطيع أن أرقص بعد ما
حدث . وأرجوك أن ترقبي مجي حنة حالما ينتهى العشاء .

قالت چو :

— رأيتهم يتأهبون للعشاء ، وأفضل أن أبقى بجانبك .

قالت :

— بل اذهبي معهم لتأكلي ، واحضري لي قدهاً من القهوة إن استطعت ، فلست أستطيع الحراك وقدمي بهذا الألم .

وجلست ميج في مكانها بطريقة أخفت الحف المظاظ عن العيون ، وذهبت چو تبحث عن قاعة الطعام فضلت طريقها إليها مرتين : الأولى عندما اقتحمت مخزن الأطباق . والثانية عندما ولجت غرفة صغيرة كان مستر جاردنر العجوز قد لاذ بها يتناول بعض المرطبات . وأخيراً وصلت إلى حيث امتدت موائد الطعام ، فأسرعت تعد قدهاً من القهوة حملته إلى ميج ، ولكنها لم تلبث أن سكبته على ثوبها ، فتشوه الصدر منه مثلما تشوه الظهر . قالت بارتباك ، وهي تزيل القهوة من ثوبها بقفاز ميج النظيف فتلطخه بالبقع :

— ما أغباني ! !

وهنا سمعت صوتاً يقول لها في رفق :

— أسمحين لي أن أعاونك ؟

والتفتت خلفها ، فرأت لورى يحمل بإحدى يديه قدهاً مليئاً

بالقهوة الساخنة ، وباليد الأخرى صحناً عامراً بالمشاجات . قالت :

— أردت أن أحمل شراباً لميج ولكني اصطدمت في سيرى بأحدهم

فانظر ما أصاب ثوبي ! !

وجعلت تردد النظر بين الثوب المبقع والقفاز الملوث .

قال :

— أمر يؤسف له ، ولكن خلني عنك ، فقد كنت أبحث عن شخص أقدم القهوة له والمثلجات ، فإن سمحت ، حملتها إلى أختك .
قالت :

— شكراً جزيلاً ، تعال أرشدك إلى مكانها ، ويؤسفني ألا أستطيع حملها عنك ، خشية أن أسكها فأزيد الطين بلة .

وسارت أمامه إلى حيث جلست ميج ، فوضع الطعام والشراب على مائدة صغيرة بجوار الفتاة المتعبة ، ثم انصرف إلى قاعة الطعام ، وعاد يحمل لحو نصيبها من العشاء . وكان يقوم على خدمة الفتاتين بأدب ورشاقة ، حتى أقرت ميج بأنه « شاب لطيف » .

وانقضى بهم وقت بهيج ، ولم تلبث أن انضم إليهم بعض الشبان ، فازدادت الجماعة مرحاً وغبطة . وعندما انتهوا من العشاء أقبلت حنة ، فنهضت ميج تلقاها بسرعة ، وقد نسيت ما أصاب قدمها ، وإذا بالألم يفاجئها شديداً قاسياً ، فتترنح وتستند إلى ذراع أختها . همست في أذن جو تحذرها :

— هس . . . لا تحدثهم بما جرى .

والتفتت إلى أصحابها وقالت :

— لا شيء . . . التوت قدمي قليلاً ، ولا داعي للقلق .

وصعدت السلم تعرج . فجعلت حنة تؤنبها حتى انهمرت الدموع

من عيني مبيج ، وأسقط في يد جو ، ثم اهتدت إلى فكرة تساعد بها أختها ، فهبطت درجات السلم مسرعة ، وطلبت إلى أحد الخدم ، أن يحضر لمن عربية . ولكن الخادم اعتذر عن أداء هذه المهمة ، إذ كان غريباً عن هذا الحى ، ولا يعرف أين تقف العربات المستأجرة .

وبينما وقفت جو تتلفت حولها في ضيق وبأس ، أقبل عليها لورى وقد سمع طرفاً من الحديث ، واقترح أن يرافقهن إلى بيتهن في عربية جده . واغتنبت بهذا الاقتراح ، ولكنها ترددت بعض التردد في قبوله . قالت :
— إن الوقت مازال مبكراً ، ومن الظلم أن نقطع عليك سهرتك .

قال :

— ولكنى اعتدت أن أعود إلى البيت مبكراً ، ولست أنتوى البقاء على كل حال ، فاسمحي لى أن أرافقكن إلى البيت ، فالسما تمطر في الخارج ولن أتجشم بمرافقتكن عناء لأنكن في طريقى .

وشجعها كلامه على قبول دعوته ، فأخبرته بما أصاب قدم مبيج ، وشكرت له اهتمامه وكرمه . وصعدت مسرعة تنادى أختها والطاهية ، وكانت حنة تمقت السير تحت المطر ، ولذلك لم تعارض في الفكرة ، ولم تثر مزيداً من المتاعب والإشكالات .

ودرجت بهم العربية الفاخرة ، وكان لورى قد قنع بالجلوس إلى جوار السائق حتى يخلى لمبيج مكاناً متسعاً تريح فيه قدمها . واغتنبت الفتاتان بالرحلة المريحة كل الاغتباط ، وقطعتا الوقت في التعليق على الحفل ومن

فيه . قالت چو ، وهى تصاح شعرها ، وتريح بدنهما المتعب :

— لقد قضيت وقتاً سعيداً ، فهل استمتعت بوقتك مثلى ؟

قالت ميج ، وهى تراجع حوادث الليلة فى بشر :

— استمتعت كل المتعة حتى التوت قدمى . فقد عرفتنى سالى

بصديقتهما الثرية آنى موفات ، فارتاحت لى معرفتى ، ودعتنى لى زيارتهم ،

فى فصل الربيع عندما يبدأ موسم الأوبرا ، وأرجو أن توافق والدتى على

قبول هذه الدعوة ، حتى أذهب مع سالى لقضاء أسبوع حافل بالمباهج

مع آل موفات .

قالت چو :

— شاهدتك تراقصين رجلاً أحمر الشعر ، فهل كان لطيفاً ؟

قالت :

— جداً . وعلى فكرة ، شعره كسنتائى لا أحمر ، وكان جم الأدب ،

ماهرأ فى الرقص .

قالت چو :

— رأيت يرقص الهولكا فذكرنى بجرادة طائشة ، فضحكت ولورى

ملء شديقنا ، هل سمعتنا ؟

قالت :

— لا . . . والسخرية بالناس مجافاة للأدب ، فأرجو ألا تفعلى

ذلك مرة أخرى ؛ ولكنك اختفيت عنا مع لورى وقتاً طويلاً ، فإذا

كنت تفعلين ؟

وحدثها چو بما فعلته منذ بداية الحفل ، وما انتهت من كلامها حتى كانت العربية قد وصلت إلى البيت . فشكرت الفتاتان لورى وودعتاه ، ثم دخلتا البيت بهدوء حتى لا تزعجا النيام ، ولكن آى وبث كانتا فى الانتظار ، فلما دلفت الفتاتان إلى غرفة النوم ، هتفت بهما الأختان الصغيرتان تقولان فى نفس واحد :

— علينا بأخبار الحفلة ، وما حدث فيها من البداية إلى النهاية .
وأخرجت چو من جيبها قطعاً من الحلوى ، كانت قد اقتصدها من نصيبها لأنختها رغم معارضة ميج ولما فى ذلك من خروج على أصول اللياقة ، واغبطت الصغيرتان بالهدية ، وزاد اغتباطهما بسماع حوادث السهرة المثيرة .

وجلست ميج فى مقعد مريح ، وعكفت عليها چو تمشط لها شعرها وتدللك قدمها الملتوية . قالت :

— ينجيل إلى ، بعد ما حدث الليلة ، أننى سيدة أرسقراطية ، أرتاد المراقص والحفلات ، وأعود إلى البيت فى عربات فاخرة ، وإذا ما أويت إلى مخدعى ، عاونتنى خادمي فى تصفيف شعرى وخلع ملابسى .
قالت چو :

— صدقت ، وأنا أشعر مثلما تشعرين ، وأعتقد أننا استمتعنا إلى أبعد حد ، وسعدنا كل السعادة ، بالرغم من ثيابنا العتيقة ، وشعورنا المحترقة ، وأحذيتنا الضيقة المتعبة .



الفصل الرابع متاعب وهموم

لم يكن من السهل على ميج أن تستقبل عملها المصنئ راضية ، بعد عطلة العيد العامرة بالمباهج والمسرات ، فقالت في صباح اليوم التالى فى حسرة وضيق :

— ما أشق أن نعود إلى طريق الكفاح الطويل .

أجابت چو وهى تتشاءب :

— ما كان أسعدنا ، لو أن الحياة كلها أعياد !

قالت ميج وهى تفحص ثوبها لتختار أقلهما قدما :

— إني أحب الرخاء ، وأغبط الفتيات الثريات ، وأتمنى أن أعيش في ترف ونعيم : أتناول العشاء خارج البيت كل ليلة ، وأهدى باقات الزهور النادرة ، وأرتاد الولائم والحفلات ، وأنتقل في عربات تجرها الجياد المطهمة ، ليتنا نستطيع أن نستمتع بالراحة ولا نعمل شيئاً .

قالت چو :

— لا تطلبي المستحيل ، ولا داعي للتذمر إذا لم يكن منه فائدة ، وخير لنا أن نحزم متاعبنا وأعباءنا . ونحملها في طريق الحياة متفائلات مستبشرات ، وقدوتنا في ذلك أمنا العزيزة . . . إذا كان عملك يضايقك ، فاذا أقول أنا في خدمة عمتي مارش ؟ إنها والله عبء ثقيل على أكتافي ويوم أروض نفسي على احتمالها راضية . تكون متاعبي قد انتهت ، وطريق حياتي سهل واتسع .

وتصورت چو أن أمنيها تحققت ، وأنها نجحت في احتمال عمتها راضية ، فانشرح صدرها للفكرة ، ولكن ميج ظلت واجمة ، ورأت كأن متاعبها تفوق متاعب الدنيا كلها . فهي تعمل مربية لأربعة أطفال أفسدهم الرخاء والتدليل ، وإنه لعمل يقبض الصدور ، خصوصاً بعد عطلة العيد وما حفلت به من ألوان المتعة والترفيه . وضاعفت فكرة العودة إلى العمل شعورها بالانقباض ، فكرهت أن تتجمل كالمعتاد ، ولم تعن بتصفيف شعرها ، لا ولم تربط عنقها بشريط أزرق لامع . قالت وهي تنهى من ارتداء ثيابها :

— لماذا أتجمل ولا من يرانى غير أولئك الأطفال المتعيين ؟ سواء كنت جميلة أودميمة ، فليس هناك من يأتى نظرة علىّ أو يهتم بأمرى . سوف أتعب وأشقى طوال حياتى ، ولن أنال من المتعة إلا نتفاً صغيرة ، ولن تلبث الشيخوخة أن تحل بى ، فأصبح عانساً لا ذعة اللسان ، وما ذلك إلا لأنى فقيرة ، لا أملك مالاً يسعدنى ، ولا جاهاً يسندنى ، فيا للبؤس ويا للشقاء !

وتوجهت مبيج إلى مائدة الإفطار كسيرة القلب حزينة ، فوجدت أخواتها بدورهن ثائرات متذمرات : بث ترقد على الأريكة تشكو صداعاً ألم برأسها ، وآمى فى ضيق شديد لأنها لم تستدكر دروسها فى خلال العطلة ،



ولا تجد حذاءها المطاط . وجو تصفر في عصبية وهي تستعد لاستقبال يوم عصب ، وحنة تضج لتأخر أفراد العائلة في النوم مما يعطل أعمالها . وازدادت جو بالتوتر الشامل ارتباكاً على ارتباك ، فانقلبت منها زجاجة الحبر ، وانقطع رباط الحذاء ، وجاست سهواً على قبعتها فهشمتها ؛ عند ذلك فقدت سيطرتها على نفسها وصرخت غاضبة :

— ما رأيت شيئاً لهذه الأسرة الثائرة !!

أجابت أمي ، وهي تغسل بدموعها أخطاءها الحسابية عن لوح

الاردواز :

— أنت أكثرنا ثورة وتدمراً .

وصاحت ميج غاضبة . عندما تشبث بثوبها قطيطات بث

الصغيرات :

— إن لم تبعدي هذه الحيوانات عنى يابث ، أغرقها في النهر .

وضحكت جو ، وظلت ميج تؤنب أختها ، وبث تستعطفها العفو

عن قطيطاتها ، وبكت أمي لعجزها عن إتمام مسألة الحساب .

وكانت مسز مارش مشغولة في تحرير رسالة ، فرفعت رأسها تقول

لبنتها :

— اهدأن لحظة واحدة ، حتى أنتهى من هذه الرسالة ، فشجاركن

يعطلنى وأخشى أن يفوتنى بريد الصباح .

وساد السكون مؤقتاً ، وهدأت الغرفة إلا من حركات حنة ، وهي

تحمل الفطائر الساخنة إلى المائدة ، وكان البنات جد مشغوفات بهذا اللون من الفطائر ، ولذلك كانت الطاهية تحرص على صنعها لهن كل صباح ، فيحملنها معهن إلى العمل وجبة للغداء ، يصبرن بها على الجوع حتى يعدن إلى البيت آخر النهار .

قالت جو ، وهي تشعر أن اليوم لم يبدأ بداية حسنة :

— هيا بنا إلى العمل ياميج ، وحاولي أن تتغلي على صداعك يابث ، إلى اللقاء يا أماه ، لقد بدأنا اليوم شياطين ، وأرجو أن نعود إليك ملائكة .

وانصرفت من البيت في رفقة ميج .

وكان من عادة الفتاتين أن تلتفتا إلى البيت عند منعطف الطريق ، فتلوح لهما الأم بيدها من النافذة ، وكانت حاجتهما إلى تلك التحية شديدة هذا الصباح ، فإن نظرة من وجهها العامر بأبلغ آيات العطف والحنان ، ذخيرة نفسية وفيرة ، تعينهما على تحمل أعباء عملهما المضني الشاق .

وبعثت برودة الجو في جسد جو نشاطاً ، وأكسبتها تحية أهمها مرحاً وتفاؤلاً ، فقالت لأختها ضاحكة :

— ليت أمي هزت لنا قبضتها مهددة ، بدل القبلة التي بعثت بها إلينا مع الهواء ، فلسنا أهلاً لحنانها ، وقد كنا صباح اليوم أشبه « بغانيات » جاحدات .

قالت ميج تؤنب أختها :

— لا تستعملي هذا اللفظ القبيح .

قالت چو ، وهي تحمى قبعها من عبث الهواء :

— إني أحب الألفاظ القوية المعبرة .

أجابت ميج :

— صني نفسك بما تشائين ، ولا شأن لك بي ، فلست « غانية »

كما تقولين ، ولا أحب أن أشبه بالغانية .

قالت چو :

— أنت اليوم مخلوقة متعبة ، قلبك عامر بالحنق والغضب ، لعجزك

عن التمرغ في أحضان الترف . اصبري حتى أجمع لك ثروة طائلة ،

توفر لك العربات الفاخرة ، والحياد المطهمة والمشاعجات الشهية ، والأحذية

ذات الكعوب العالية . وعندئذ تعيشين كما ترغبين ، وترقصين مع الرجال

ذوى الشعور الحمراء !

وانقشع عن ميج غضبها بهذا الهراء ، وزايلها ضيقها السابق ،

فقالت ضاحكة :

— ما أسخفك يا چو !

قالت چو :

— من حسن حظك أنني سخيقة ، ولو لم أكن كذلك ، لأجبتك

على غضبك بمثله فتسوء العاقبة . إني أحمد الله على نعمة المرح ، وأجد

فى التفاؤل قوة وسعادة ، فكونى مثلى ، واتركى الغضب والتذمر ، وتعودى أن ترجعى إلى البيت فرحة راضية .

ثم ربتت كنف أختها مشجعة ، وانصرفت كل إلى مقر عملها وهى تتظاهر بالسعادة ، رغم برودة الجو ، ومشقة العمل ، وقسوة الحرمان من مباحج الشباب .

كان مستر مارش فى بداية حياته على قدر مذكور من الثراء ، لكنه كان طيب القلب عطوفاً ، فلما رأى صديقاً له فى مأزق مالى ، أراد أن ينقذه ، فصاعت ثروته ، ولم يبق له إلا الكفاف . ورأت ابنتاه الكبيرتان أن تخففا العبء عنه بالعمل ، فسمح لهما أبوهما بذلك ، وغرضه الحقيقى أن يعلمهما الاعتماد على النفس ، ويغرس فى نفسيهما روح الجِد والنشاط . واقتحمت الفتاتان أبواب العمل فى عزيمة لا تلبث ، واشتغلت مارجريت مربية للأطفال . وكان أجرها ضئيلاً ولكنها شعرت كأنه ثروة طيبة ، تكفل لها نفقاتها الخاصة ، وتغنيها عن سؤال والدها المرهق بالأعباء ، وكانت بطبعها تميل إلى حياة الترف ، وتحب أجمل الأشياء ، ولكن ظروفها المالية لم تحقق أمانها الواسعة . وكانت ترى ألوان الرخاء فى بيت مخدومها مستر كنج ، فتجاهد فى إخفاء غيرتها مما تراه حولها ، وتبذل جهوداً مضاعفة فى كبت ضيقها بالحياة ، وهى ترى بنات مستر كنج الكبيرات يرتدين الملابس الغالية ، ويحمان باقات الزهور النادرة ، ويروين العجيب من أحاديث المسارح والحفلات . وكانت ترى الأسرة

تفقد أموالا طائلة في كماليات تافهة ، فيزيد شوقها إلى هذه التوافه ،
وتعتبرها أتمن الأشياء .

وقلما كانت ميج تصرح بما يعتمل في نفسها ، فاستبد بها إحساس
مكبوت شعرت معه بأنها مظلومة في هذه الحياة ، وأن ظلمها يبدو مريراً
لأنها لم تنشأ على الفقر في صغرها ، بل عرفت الثراء يوماً ، وما زالت
تذكر عهد العز والرخاء .

وكان نصيب چو مختلفاً ، فقد أعجبت بها عمها مارش ، فاستخدمتها
وصيفة لها . وكانت العمة مارش عجوزاً عرجاء ، تحتاج إلى من يساعدها
على أداء واجباتها ، فلما حلت النكبة المالية بأخيها أبدت رغبتها في أن
تبنى واحدة من بناته الأربع ، ولكن الأب رفض أن يجيبها إلى رغبتها ،
وقد أنكر الأصدقاء عليه رفضه هذا ، وقالوا إنه يحرم بناته فرصة طيبة
فقد تورهن العمة مالها ، ولكن الماديات لم تخدع آل مارش ، فردوا
على أصدقائهم قائلين :

— لن نفرط في بنت لنا لقاء مال مهما كثر ، وسنبقى دائماً معاً
فقراء أو أغنياء .

واشند الغضب بالعمة العجوز ، فخاصمت أباها وأسرته زمناً
طويلاً ، ثم شاء القدر أن تقابل چو في بيت أحد الأصدقاء ، فراقها
نمها وجه ضاحك ، وروح مرحة ، وأسلوب صياني خشن ، وعندئذ
زلت العجوز عن غضبها السابق ، وعرضت على أخيها أن تتخذها

وصيفة لها تساعدها في البيت طوال النهار . ولم يرق هذا العرض في نظر الفتاة ، ولكنها اضطرت إلى قبوله بعد أن أعيأها البحث عن وظيفة أخرى . ولدهشة الأقارب والأصدقاء على السواء ، سارت الأمور على مايرام بين جو وعمتها ، وكانتا مختلفتان أحياناً ، وتقوم بينهما مشادات ومناقشات ، فتخرج جو من بيت عمتها غاضبة ، وتقسم ألا تعود إليه ثانية ، ولكن غضب العجوز لا يلبث أن ينصرف ، فترسل في استدعاء بنت أخيها ، وتلح في طلبها وترجو فتلين الفتاة وتعود إليها ، والسر في ذلك أنها كانت تحب عمتها وتحلها من نفسها محلاً طيباً ، رغم سوء طبعها وقسوة لسانها .

ولعل أكثر ما كان يجتذب جو إلى بيت عمتها ، تلك المكتبة العامرة بأقيم المؤلفات ، وكان زوج عمتها قد ترك هذه المكتبة ضمن مخلفاته ، فظلت بعد وفاته مهملة تنسج عليها العناكب خيوطها . ورغم مضى السنوات على موته ، كانت جو لا تزال تذكره ، وكذلك كيف كان يأذن لها أن تلعب بالكتب والقواميس فتنبى بها بيوتاً وقصوراً ، وكيف كان يهديها صوراً وحلوى كلما رآها في الطريق .

وكانت غرفة المكتبة متربة معتمة ، تنتثر فيها التماثيل النصفية والمقاعد المريحة ، وتغطي أرففها كتب لا حصر لها ونماذج مختلفة الأحجام للكرة الأرضية . وكانت جو تحب تلك الغرفة ، وتلجأ إليها كلما أعوزها الهدوء والترفيه ، فما إن تغفو عمها غفوة قصيرة ، أو يشغلها

عن وصيفتها زائر أو صديق ، حتى تهرع چو إلى ملجئها الهادئ ، فتجلس فوق أحد المقاعد ، وبين يديها كتاب ممتع في الشعر أو القصص أو التاريخ أو الأسفار والرحلات ، تلثم بعينها ما فيه التهاماً . ولكن قلما كانت سعادتها تدوم ، فما إن تصل إلى أمتع ما في كتابها ، حتى يرتفع صوت العجوز منادياً « چو . . . زيفه . . . بن » « چو . . . زيفه . . . بن » وعندئذ تترك متعتها كارهة ، وتعود إلى عمتها لتساعدتها في لف بكرة خيط ، أو تنظيف كتابها المدلل ، أو تقرأ لها كتاباً مملأً ساعات وساعات .

وكانت چو تتمنى أن تقوم بعمل رائع في يوم من الأيام ، ولكنها لم تحدد نوع هذا العمل ، واختارت أن تترك للزمن هذه المهمة ، قانعة عن السعي إليها بالتفجع على حرمانها من القراءة والجرى وركوب الخيل وغير ذلك من ألوان التسلية المفضلة لها . وكانت الفتاة حادة الطبع ، لاذعة اللسان ، حائرة المزاج ، وهي صفات كثيراً ما أوقعتها في مأزق حرجة ، وجعلت سيرتها خليطاً من الفضائل والنقائص ، التي كانت تضحكها أحياناً ، وتبكيها أحياناً أخرى . ولكنها رضيت بالعمل في بيت عمتها ، رغم المضايقات المختلفة ، من أجل المرتب الذي كانت تشعر أنها في حاجة إليه .

وكانت بث تعاني خجلاً شديداً ، وقف بينها وبين الاستمرار في دراستها ، فتركت المدرسة لتتلقى علومها في البيت على يد والدها ،

فلما دعا الأب داعى الوطن ، وتطوع فى سلك الجيش المحارب ، وانشغلت أمها عن تعليمها بالعمل فى «جمعية مساعدة الجنود» ، عكفت على تعليم نفسها بنفسها فى جد وإخلاص وعزم . وكانت ربة بيت بطبعها ، فتعهدت بمساعدة حنة فى تدبير شئون المنزل ، وتهيئة أسباب الراحة لأخواتها العاملات ، لا تنتظر جزاءً سوى محبة أفراد الأسرة ، واعتازهن بها .

وكانت تضحى بها الساعات والأيام ، وهى تعمل وحيدة ، فلا تكل من العمل ولا تشكو الوحدة ، لأنها كانت تعيش فى دنيا خيالية عامرة بالأصدقاء والمسرات . كانت تتخذ من الدمى العتيقة التى خلعتها عليها أخواتها ، أصدقاء أعزاء ، تحدهم وتدلهم ، وتكسوهم بالثياب التى تصنعها من الخرق البالية . ولم يكن بين هذه الدمى واحدة سليمة أو جميلة الشكل ، ولكنها كانت تحبها لبؤسها وسوء حالها . ومن الطريف أنها لفرط عطفها على دُمائها افتتحت لذوات العاهات منها ملجأ أميناً ، تحوطها فيه بأبلغ ألوان الرعاية والحنان ، وكانت تعتر بحطام دمية اشترت لحو فى يوم من الأيام ، فعبثت بها خشونتها الطبيعية حتى تحطمت ولم يبق منها إلا جزء يسير ، فأنقت بها فى صندوق الفضلات وجاءت آمى بجانها المعهود فأنقذت الدمى من مصيرها التعس ، وآوتها فى ملجئها ، بعد أن غطت بجمعيتها المكسورة بقبعة صغيرة وأخفت الأطراف المتورة تحت ثوب فضفاض . والعجيب أن هذه الدمية

المحطمة احتلت أحسن سرير في الملجأ ، وآثرتها بث بأكبر قسط من رعايتها واهتمامها ، فكانت تأتيا ببقايا الزهور الجميلة ، ونقرأ لها لتسليها ، وقصحبها معها إلى الحديقة لتروح عنها . وكانت تغنى لها قبل النوم وتودعها كل ليلة بقبلة ملؤها العطف والشفقة ، ثم تهمس في أذنها متمنية لها نوماً هادئاً وأحلاماً سعيدة .

وكان لبث متاعها وأشجانها ، فقد كانت تعشق الموسيقى ، وتبجهد نفسها في تعلم أصولها ، وتزودي تمريناتها بصبر وجلد ، وكل أملها في الحياة أن تقتنى معزفاً جميلاً ، وأن تلتقى المساعدة في دراسة الموسيقى ، ولكن معزف الأسرة كان عتيقاً بالياً ، ولم يعن أحد بمعونتها فيما تنشد ، فكانت إذا اشتدت بها الهموم ، واستعصت عليها الأنغام ، قنعت بالبكاء وحدها ، فتساقط دموعها على أصابع المعزف الصفرء ولا من يعلم مبلغ شقائها ، وعلى الرغم من ذلك كانت مرحة طروباً ، تغنى كالكروان وهي تؤدي أعمال البيت الشاقة في صبر وجلد ، وكل أملها أن يحقق الله أمانها جزاء لها على طيبها وإخلاصها .

العالم ، ولا شك ، ملء بفتيات مثل بث ، يقنعن بالانزواء ، ويضحين من أجل سعادة غيرهن ، ويعشن في إنكار جميل للذات ، ولا من يحس بعظم تضحيتهن حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، فتسكت أصواتهن الجميلة عن الكلام ، وتغيب شموههن الساطعة عن الوجود ، فيرحلن عن الحياة وقد خلفن لأحبتهن سيراً عاطرة وذكريات لا تموت .

لو أن سائلا سأل آى عن أكبر همومها ومتاعها ، ما ترددت في الاعتراف بأنها تعاني الأمرين من أنفها ، الذى يرجع تاريخ محنتها فيه إلى مرحلة الطفولة ، يوم كانت جوتحملها بين ذراعها ، فسقطت الصغيرة منها عفواً فى إناء الفحم الكبير . ويجلو آى دائماً أن تحمل السقطة وزر تشويه أنفها ، وتقول إنه لولا إصابتها فى ذلك اليوم ، ما تغير شكل الأنف وما فسد رسمه الأول الجميل . ولم يكن أنفها فى الحقيقة كبيراً أو قبيحاً ، إنما كان مفرطاً ، وكانت تود أن يكون معتدلاً مستقيماً ، ولما لم تجد فى إصلاحه محاولاتها الساذجة الكثيرة ، قنعت فى التعبير عن آمالها الخائبة برسم أنوف جميلة ، ملأت بها صفحات و صفحات .

وكانت ذات موهبة ممتازة فى الرسم ، وأسعد أوقات حياتها تلك التى تقضيها فى نسخ صور الأزهار والورود ، أو فى تأليف مناظر عجيبة تصور بها حوادث القصص التى تقرأها ، وكان مدرسوها يشكون من أنها تضيع وقتها فى ملء لوح الأردواز برسوم الحيوانات ، بدل أن تحل مسائل الحساب ، وأنها تملأ الصفائف البيضاء من أطلسها بنسخ الخرائط المعقدة ، وأن كتاباً من كتبها لم ينج من الرسوم الهزلية المختلفة . ولم تكن ممتازة فى دروسها مثلما هى ممتازة فى رسوماتها ، ولكنها استطاعت أن تتحاشى العقوبات بالطاعة والنشاط والأدب هذا إلى إتقانها الغناء والتطريز ، وإلمامها بالفرنسية بحيث لم تكن تحظى فى نطق أكثر من

ثلثي ما تقرأ ، وهو تفوق عظيم بالقياس إلى زميلاتها الأخريات ! !
وكانت محبوبة من لداتها لمرحها وكياستها ، وتأنقها في اللفظ باستعمال
كلمات نحوية في أحاديثها ، مما يكسبها سماء الأرستقراطية .

وكانت آمي مدللة يحبوها أهلها ومعارفها بالعطف والحنان ، فترعرت -
بها روح الأنانية ، وازدادت رغباتها التافهة ، ولم يكن يحد من نماديتها في
تلك النقائص ، سوى الفقر الذي يجرمها من الثياب الأنيقة التي نجبها ،
فلم تكن موارد آل مارش تسمح لها بشراء القبعات الحمراء ، والثياب
الجميلة المحلاة بالدنتلا ، والمراول المقصوفة على أحسن طراز . وكانت
الظروف تضطرها إلى أن تستعوض عن كل هذا بما تخلعه عليها
بنت خالتها « فلورنس » من ثياب مستعماة ، ربما كانت غالية الثمن
غير مستهلكة ، غير أن ذوق الفتاة الفني كان ينكر تنافر ألوانها وتعقيد
قصاتها ، وخلوها من مظاهر الأناقة والجمال . وكان أقبح ما في خلع
فلورنس ، ذلك الثوب الذي أعطته لها هذا الشتاء لتذهب به آمي إلى
المدرسة ، فقد كان أرجواني اللون منقوشاً بنقط صفراء فاقعة ، وليس فيه
قطعة واحدة من الدنتلا تخفف من حدة تنافر ألوانه .

قالت آمي يوماً لميج :

— إنى أكره ثوب المدرسة ، وأمقت طرازه وألوانه ، ولكن عزائي
الوحيد أنه أحسن حالا من ثوب زميلتي ماريا پارك ، ولا يمكنك أن
تتصورى مبلغ الهوان الذي يلقاه الثوب على يدي أمها ، فأحياناً يرتفع

إلى ما فوق ركبتيها ، وأحياناً أخرى يفسد حتى تنقطع الفتاة عن المدرسة لفرط بشاعته . وكلما تذكرت ماريًا وثوبها ، أحمد الله على ما أنا فيه وتهون على متاعبي ، فأرضى بكل هم ، حتى أنفى المفرطح وثوب المدرسة القبيح .

وكانت ميج موضع ثقة أمي وناصحتها : وكانت بث صديقة لحو ، تفتح قلبها الصغير على مصراعيه دون حرج ، وتبسط عليها ساطانها دون بقية أفراد الأسرة ، وتجد في أساليب أختها الكبيرة الخشنة ملاذاً لعواطفها الحية الجياشة . وكما أن ميج آثرت أمي برعايتها ، كذلك فعلت چو مع بث ، إذ وجدت الأختان الكبيرتان في تلك الرعاية منفذاً لإظهار عواطف الأمومة الكامنة فيهما ، والتي تطورت بمضي السنوات من اللعب بالدمى إلى رعاية الأختين الصغيرتين .

عندما التأم شمل الأسرة في المساء ، وجلس الأخوات يطرزن على عاداتهن كل لياة ، قالت ميج :

— ألا من خبر جديد يسلينا ؟ لقد قضيت يوماً عصيباً ، وأشعر

بحاجة إلى الترفيه .

قالت چو ، وكانت مشغوفة برواية القصص والأحاديث :

— سأحدثكن بما حدث اليوم بيني وبين عمتي . لقد اعتدت أن

أقرأ لها كتابها الممل في صوت رتيب كظنين النحل ، حتى تستسلم للنعاس ، فأنسل إلى غرفة المكتبة أقرأ ما يحلو لي من كتب مسلية بسرعة

خاطفة قبل أن تستيقظ . وكنت أشعر في صباح اليوم بليل شديد ، وأشعر بحاجة إلى ما ينعش نفسي ، فأكسبت صوتي زينياً ناعساً لأشجعها على النوم ، وعندما رأيت جفنيها ينطبقان ، توقفت فاغرة الفم عن القراءة ، ولكن العجوز رأته لسوء الحظ ، فتنهت رسألتني لماذا أفتح فمي واسعاً هكذا ، حتى أجعله يتسع لكتاب كامل ؟ قلت وأنا أظهار بالأدب :
 - ليتنى أملك ذلك الفم ، لأبتلع هذا الكتاب وأستريح منه .

- وأغضبها كلامي فألقت عليّ محاضرة طويلة تعدد فيها أخطائي وذنائلي ، وطلبت ليّ أن أجلس إلى نفسي فأحاسبها على شروها ، ربما تغفو قليلاً . ولم أجد مفرّاً من النزول عند إرادتها والعمل بنصيحتها ، فأخرجت من جيبى كتاب « قس ويكفيلد » وجعلت أقرأ فيه بعين ، والعين الأخرى على عمى ، وما إن وصلت في قراءة إلى حيث سقط الأبطال جميعهم في الماء ، حتى نسيت حذرى وأدبي ، وانفجرت ضاحكة . واستيقظت عمى على صوتي ، ولكن النوم كان قد أكسبها هدوءاً ، فلم تؤنّبني ، وكل ما فعلته أن أمرتني بأن أقرأ لها في ذلك الكتاب السخيف الذى أفضله على كتابها القيم الثمين . وقرأت كأحسن ما أستطيع ، فأعجبها الكتاب وإن قالت في النهاية :

- لست أفهم ما يرمى إليه المؤلف بهذا الكلام ، فأعيدى القراءة

من البداية !

وبدأت القراءة من جديد ، وبذلت جهدى في أن أجعل الموضوع

مفهوماً لها ، ثم حلا لي أن أعاكسها ، فلما وصلت إلى موقف مشير ، توقفت عن القراءة فجأة وقلت لها :

— أخشى أن القراءة قد أتعبتك ، أفلا يحسن أن ننهي عند هذا

الحد؟

— وكان تطريزها قد سقط في حجرها ، فلما سمعني أقول هذا ،

تناولته بيديها ، وألقت علي من خلال منظارها نظرة قاتلة وقالت :

— استمرى في القراءة إلى نهاية الفصل ، ويحسن ألا تكوني وقحة

يا آنسة .

قالت ميج ضاحكة :

— وهل اعترفت بأن الكتاب أعجبها ؟

قالت جو :

— لا طبعاً . . . لم تعترف ، ولكنها هجرت كتابها الأول ،

وعندما حان وقت عودتي إلى البيت ، دخلت آخذ قفازي من غرفتها ،

فرايتها تلتهم « قس ويكفيلد » بشوق بالغ ، شغل حواسها عن كل شيء

عدها ، فلم تسمعني وأنا أضحك طرباً وبهجة . إنني أشفق عليها لأنها

تعقد حياتها بنفسها . ولست أحسدها على ثرائها الطائل ، فلأغنياء

أيضاً متاعهم الجسيمة .

قالت ميج :

— أما أنا ، فقد وجدت اليوم أسرة كنج في هرج ومرج ، وأخبرني

ابنتهم الصغيرة أن أخاها الأكبر أتى فعلة شغواء ، طرده أبوه على أثرها من البيت ، وسمعت نجيب مسز كنج وصياح مسز كنج ، وعندما مرت بي بنتاهما الكبيرتان جريس وآمي ، التفتتا إلى الناحية الأخرى حتى لا أرى عيونهما التي قرحها البكاء . ولم أسأل بطبيعة الحال عما حدث ، فليس من الأدب أن أتطفل على شئون الغير ، ولكنني حزنت من أجل هذه الأسرة ، وحمدت الله أن ليس لنا أخ يأتي شروراً تشين العائلة .

فهزت آمي رأسها هزة الحكيم المحنك وقالت :

— حدث اليوم في مدرستنا ما يشبه ذلك ، فقد حضرت سوزى بيركنز وفي إصبعها خاتم أحمر اللون ، وددت لو كان لي مثله لأزهي به على أترابي ، ولكن هذا أمر آخر . المهم أن سوزى جلست في الفصل ترسم صورة لمدرستنا مسز دافيز ، وجعلت له فيها أنفاً هائلا ، وظهرأ أحديب ، وأخرجت من فمه كلاماً يقول فيه « عيني عليكن أيتها الفتيات » وبينما كنا نضحك من الصورة الهزلية ، إذا بعين مسز دافيز تقع علينا فعلا . فاستدعى سوزى إليه ، وأمرها أن تحضر رسمها معها . وكادت المسكينة تجن لفرط فزعها ، ولكنها اضطرت أن تذهب إليه ، وبين يديها دليل جريمتهما ، فشد أذنها ، ثم جرّها إلى المنصة . وأمرها بالوقوف فوقها نصف ساعة تحمل الصورة بحيث يراها تلميذات الفصل كلهن . تصورى هذه القسوة والبشاعة ! أعتقد أن أخطاء المدرسة أشد خطراً وأعمق أثراً من أى خطأ في الحياة .

سألها چو :

— ألم يضحك البنات لما أصابها ؟

أجابت آمی :

— بل انكمشن كالفيران ، وغلبت الدموع سوزی ، فبكت ما شاء لها البكاء وعندئذ رثيت لحالها ، وعرفت أن خواتم العالم كله لا تعرضها عن إهانتها البالغة ، ولو كنت في مكانها ما نسيت هذه اللحظة طول حياتي . وتناولت تطريزها ، تعمل فيه مطمئنة إلى سموها على مثل هذه المواقف المخجلة .

قالت بث ، وهي ترتب أدوات التطريز التي اختلطت في سلة چو :
— نسيت أن أحدثكم على العشاء بما رأيته هذا الصباح ، عندما ذهبت إلى السوق أبتاع بعض لوازم حنة ، فقد رأيت مستر لورنس العجوز في متجر الأسماك ، ولكنني حرصت على الاختفاء وراء برميل كبير حتى لا يراني . ودخلت حينئذ امرأة فقيرة تحمل دلوأ به مكنسة وفرشاة ، وسألت صاحب المتجر أن يسمح لها بتنظيف المكان لقاء قطعة من السمك تطعم بها أطفالها الجياع . وكان البائع مشغولا بعمله ، فصرفها بخشونة ، فاستدارت المرأة إلى الباب وعلى وجهها أبلغ أمارات الحزن واليأس . وفي هذه اللحظة رأيت مستر لورنس يأخذ من المتجر سمكة كبيرة ، ويعطيها إياها ، فاخنطقتها من يده فرحة مسرورة ، وخرجت تخفضنها وتقول : « مأسرع بطهيها لأطفالى الجياع » .

وشعرت أن لمستّر لورنس مكاناً فسيحاً في الجنة ، فليس أجمل من أن ندخل السعادة على قلوب المحرّومين .

وعندما انتهت بث من قصتها ، التفت أخواتها إلى أمهن ، وطلبن إليها أن تروى لهن بدورها خبراً ، فقالت بعد تفكير قليل ، وقد بان الجدل على وجهها :

— بينما كنت أعمل اليوم في تفصيل ملابس الجنود بدار الجمعية ، حملتني أفكارى إلى والدكن فاستبدتني القلق على حياته ، وتمنيت إلى الله أن يحفظه من كل سوء ، حتى لا نعيش بعده في وحدة وعجز . وما كان يصح أن أفكر هكذا ، ولكن قلّقى عليه أخرجني عن حكمتي . ودخل رجل مسن يطلب بعض المهمات ، فرأيت في وجهه مظاهر التعب والفاقة والقلق ، وأردت أن أسرى عنه فبدأته الحديث قائلة :

— ألك أولاد في الجيش ؟

أجاب بهدوء :

— نعم ياسيدتى ، أخذ الجيش منى أربعة أولاد ، قتل منهم اثنان ، وأسر الأعداء الثالث ، أما الرابع فجريح في مستشفى واشنطن . وقد جئت الآن أطلب له المهمات .

— وانقلبت شفقتى عليه احتراماً له فقلت :

— لقد ضحيت كثيراً من أجل وطنك .

قال :

— لم أضح أكثر من غيرى ، إنه الواجب يا سيدتى ، وقد كنت أتمنى أن أحارب فى الجبهة دفاعاً عن وطنى ، ولكنى عجزت مريض لا أصلح للقتال ، ولذلك قدمت أولادى عوضاً عنى ، ولست أبتغى من وراء ذلك شكراً أو جزاءً .

— وكان يتكلم بمرح كأنه سعيد بتضحيته ، وشعرت بالحنين من نفسى ، وكرهت أن أقدم للوطن رجلاً واحداً ، ثم أطلب من الله سلامته . كنت أظن أننى قدمت بزواجى كثيراً ، فتيبنت خطأى أمام ذلك الأب الباسل الذى أعطى الوطن راضياً أربعة أولاد ، ذهب ثلاثة منهم ، والله يعلم بمصير رابعهم الجريح . وهانت على تضحيتى عندما تذكرت أن لى بنات حبيبات يئسن وحدتى ، ويذهبن وحشتى ، وإنها لثروة طائلة من السعادة . وأعطيت الرجل هدية طيبة ، ومنحته بعض المال شاكرة له الدرس الخلقى الذى تعلمته عنه .

وساد السكون برهة ، ثم قالت چو :

— علينا بقصة أخرى يا أمه ، يكون لها مغزى جميل كهذه ، فإنى أحب أن أستعيد فى وحدتى ما تقولين ، بشرط أن يكون حقيقياً وليس فيه وعظ كثير

فابتسمت مسرماً ، وبدأت لفورها قصة أخرى ، وكانت تعرف ما يعجب سامعاتها الصغيرات ، قالت :

— إنها قصة أربع فتيات ، أنعم الله عليهن بحاجتهن من طعام وشراب

وثياب ، وكذلك أنعم عليهن بوالدين طيبين ، وأصدقاء مخلصين ، وبالرغم من كل هذه النعم لم يكن البنات راضيات . . .
وهنا التفتت السامعات بعضهم إلى بعض ، ثم انحنين على تطريزهن يشتغلن فيه بجد واجتهاد .

استرسلت الأم في حديثها فقالت :

— كن في الحقيقة بنات طيبات ، يتقنن إلى بلوغ الخير ، ولكنهن أخطأن الطريق إليه لسبب ما ، وانسقن وراء مطالب الدنيا الغرور ، فنسين ما أنعم الله عليهن به ، وتطلعن إلى مزيد من الترف والرخاء .
وزاياتهن السعادة ، فذهبن إلى عجوز يطلبن منها طلسماً يفتح أمامهن أبواب الهناء ، فقالت لهن : إذا أعوزكن رضا النفس ، فتذكرن نعم الله عليكم ، وعددن ما تمتزن به على غيركن ممن هم أقل منكن حظاً ، تأتيكن السعادة مسرعة ، وتفتح لكن أبواب السلام .

وهنا رفعت چو رأسها بسرعة ، كأنها تريد أن تتكلم ، ولكنها عدلت عن رأيها حتى تنتهى أوهها من القصة .

ومضت الأم في حديثها تقول :

— وكن في الحقيقة بنات عاقلات ، فأخذن بنصيحة العجوز ، وعملن بمشورتها ، فإذا بالسعادة تأتيهن غامرة : فقد كشفت لإحداهن أن المال لا يحمي بيوت الأغنياء من العار ، وتبينت الثانية أنها على فقرها أسعد ألف مرة من عمة ثرية مريضة ، وعرفت الثالثة أنها إذا كانت

تتعب وتشقى في كسب رزقها فتعجبها وشقاؤها أكرم وأفضل من مذلة السؤال ، وتعلت الرابعة أن الحواتم الحمراء الثمينة لا تعوض خسارة الإنسان في الأخلاق . وهكذا انبليجت الحقائق أمام البنات ، فأقلعن عن الشكوى والتذمر ، ورضين بنصيبيهن في الحياة ، وبدأن سيرة جديدة عطرة لابطر فيها بنعمة الله .

صاحت ميج بأمها تقول :

— والله إنها لمهارة يا أماه ، أن تشهرى قصصنا أسلحة في وجوهنا ، وتقلبيها إلى حكم وعظات .

وقالت بث في تأمل وتفكير :

— إنى أحب هذه العظات ، لأنها تذكرني بما كان يقوله لنا أبى .

وقالت أمى معجبة بالمغزى الحسن :

— ليس من طبعى أن أشكو كثيراً ، ولكنى سأضعف من اليوم

حذرى ، فقد كان فيما أصاب سوزى درس لن أنساه .



الفصل الخامس

حقوق الجار

في عصر أحد الأيام ، دخلت چو الردهة ، وهي تلبس حذاءها الطويل المطاط ، وتتدثر بمعطف قديم سميك ، وكانت تحمل في إحدى يديها مكنسة ، وفي الأخرى مجرفة ، فسألها أختها ميچ :

— ما وراءك يا چو ؟

أجابت بنجث :

— سأخرج في رياضة قصيرة .

قالت ميچ وهي ترتجف برداً :

— ألم تكفك رياضة الصباح ؟ لقد سرنا طويلا مرتين ، والبرد الآن شديد في الخارج فأنصحك أن تبقى معي هنا ، حيث الدفء والحنان .

قالت :

— وفري عليك نصيحتك ، فلست قطة كسولا أتضي اليوم كله ساكنة في البيت ، ثم إنني مشغوقة بالمخاطرات ، وسأخرج الآن بمخاويرها . وتركتها ميج تفعل ما تشاء ، راضية لنفسها بالجاوس إلى جانب النيران وبين يديها قصة «ايفان هو» ، وانصرفت جولا إلى الخارج تشق طريقها بين الثلوج المترامكة في الحديقة . ولم تكن الثلوج قد تماسكت بعد ، فلم يكن من العسير عليها أن تشق طريقاً بمجرقتها ومكنتها ، وغرضها من ذلك أن تهبي لبث أسباب التزهة اليومية في صحبة دماها المشوهات . وكان منزل ل مارش يقع في ضواحي المدينة ، حيث تمتد الأحراش ، وتكثر الحدائق والحشائش الخضراء ، وكان بيتاً أكسبه الشتاء لونا بنيا ، عبث الصقيع بحديقته ، فجردها من زهورها وخضرتها . وفي نهاية الحديقة سياج قصير على الجانب الآخر منه قصر مستر لورنس العجوز ، وكان القصر جميل البناء تدل مظاهره على اكتمال وسائل الراحة والرفاهية فيه ، فن حظائر كبيرة للعبات ، إلى مسطحات سندسية خضراء ، إلى بيوت زجاجية تحوى أجمل الزهور . وعندما تنفجر الستائر قليلا عن نوافذه ، يستطيع الناظر إليه من الخارج أن يرى الرياش العظيم ، والأثاث المريح .

ولكن رغم هذه الميزات العديدة ، كان البيت يبدو خلواً من الناس .
فلاوجه يطل من نوافذه ، ولا طفل يلعب في حديقته ، ولا ضجيج
يوحي بالأنس والبهجة ، وهو أمر طبيعي ما دامت الأسرة قد اقتصر
على الجلد وحفيده ، والأصدقاء القليبين الذين يطرقون أبوابه .

وكانت چو بطبعها ذات خيال واسع حى ، فكانت تعتبر بيت
لورنس تصراً مسحوراً يمتلئ بالمتع والمسرات التى لا يمكن أن توجد فى
مكان غيره . وكم تاقت نفسها إلى رؤية ما فيه من سحر وعظمة . وكم
تمنت أن تتعرف بلورنس الصغير الذى تدل مظاهره على أنه يرحب
بمعرفتها ولكنه لا يعرف من أين يبدأ صداقته معها . ومنذ تلاقيا فى
ليلة المرقص ، رسمت خطأ كثيرة لاكتساب صداقته ، فلم يشأ القدر
أن تتحقق واحدة منها ، إذ اختفى الصبي عن عينيها فى المدة الأخيرة ، حتى
ظنت أنه قد سافر إلى مكان ما . وظلت الحال على هذا المنوال ، إلى
أن خرجت آى وبث إلى الحديقة ذات يوم ، تلهوان بكرات تصنعانها
من الجليد وتراشقان بها فى عبث ومرح ، وعندئذ رأت چو وجه الصبي
يطل من النافذة العليا على أختها وفى عينيه شوق مكبوت إلى اللهو
معهما . فقالت تحدث نفسها :

إن هذا الصبي فى وحدة قاتلة ، وجده العجوز يجهل صالحه فيحرمه
من حريره ، ويغلق الأبواب دونه . إنه فى حاجة إلى صحة طيبة
ورفاق يمتثلون شباباً وحيوية ، وتحذونى رغبة شديدة فى أن أزور السيد

العجوز ، وأرشدته إلى مافيه خير حفيده .
وأعجبت چو بالفكرة الجريئة ، ولكنها احتفظت بها حتى تأتي
الفرصة المناسبة .

وفي عصر ذلك اليوم البارد ، الذي رأتها فيه ميج تخرج إلى الحديقة
بمكنتها ومجرفتها ، كانت چو قد قررت أن تفعل شيئاً ، بعد أن رأته
مستر لورنس العجوز يستقل عربته وينصرف عن البيت لقضاء بعض
الشئون ، فنزلت إلى الحديقة تمهد طريقاً في الجليد يتجه نحو السياج ،
فلما انتهت من مهمتها . وقفت تجيل بصرها فيما حوطا . وكان كل شيء
هادئاً ساكناً ، فستائر القصر مسدلة ، وخدمه لا أثر لهم ، ولم تقع
عينها إلا على الصبي لورنس وهو يرسل النظر ساهماً من وراء زجاج
النافذة وقد أسند رأسه إلى يده . قالت لنفسها :

— يا للأسى ! إن الصبي يقبع في البيت وحيداً مريضاً في مثل هذا
اليوم العبوس ، سأرميه بكرة من الجليد : لألفت نظره ، فأحبيه .
وجمعت قبضة من الجليد الناعم ، وشكلتها في كرة صغيرة ، ثم
ألقت بها إلى النافذة ، فالتفت الصبي نحوها ، وذهب شروده عنه ،
وافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة . وألقت إليه بتحتيتها ضاحكة ، ولوحت له
بمكنتها ، وصاحت تقول :

— كيف حالك ؟ أمرىض أنت ؟

وفتح لورى النافذة ، وقال في صوت مبحوح :

— قد أصابني برد شديد ، أقعدني الفراش أسبوعاً ، ولكني اليوم أحسن حالا .

قالت :

— يؤسفني أن تمرض ، ولكن ماذا تفعل بنفسك طوال الوقت ؟

قال :

— لا شيء ، إن البيت في وحشة القبور .

قالت :

— ألا تقرأ كتاباً ؟

قال :

— منعوني من القراءة حتى أسترد عافيتي .

قالت :

— ألا تجد من يقرأ لك ؟

قال :

— جدي يقرأ لي أحياناً ، ولكن كتبتي لا تروقه ، وأكره أن أثقل

على رائدي « بروك » .

قالت :

— ألا من صديق يقرأ لك ؟

قال :

— ليس لي صديق في هذا البلد ، وأخشى إن دعوت فتياناً ،

— يصدعون رأسى بضجيجهم وصخبهم .

قالت :

— إن البنات هادئات بطبعهن ، ولعبة التمريض محبة لهن ، أفلا من

صديقة تقرأ لك وتسليةك ؟

قال :

— لا أعرف فتاة واحدة ، مع الأسف .

قالت :

— ولكنك تعرفنى

ثم ضحكت وتوقفت عن الكلام ، فصاح بها فرحاً :

— صدقت ، فهلا تكرمت بالحضور قليلاً ؟

قالت :

— لست بتأ هادئة كما تعتقد ، ولكن يسرنى أن أبى الدعوة إذا

أذنت لى أى بذلك . فأغلق نافذتك ، حتى أستأذنها .

وأسندت مكنستها إلى كتفها ، وصارت إلى البيت بخطى واسعة ،

وهى تتساءل عما تقوله أخواتها عندما تروى لهن ما حدث .

وهرع لورى يستعد للقاء الفتاة فرحاً بحضورها ، وكان سيداً

مهذباً كما وصفته مسز مارش ، فشط شعره ، وغير بنيقته ، ثم عكف

على الحجرة ينظمها بنفسه ، رغم وجود ستة خدم يقفون على خلمته .

وسرعان ما علا زئير الجرس فى البيت ، وسمع صوتاً يسأل عن «مستر

لورى ، ثم أقبلت عليه الخادم تعلن فى دهشة بالغة قدوم سيدة صغيرة .

قال لورى وهو يتجه إلى الردهة ليقابل چو :
— إنها مس چو ، فأرجو أن ترشدنيها لى .

ودخلت عليه چو فى بسمة هادئة ، وكانت تحمل فى إحدى يديها صحناً ، وفى اليد الأخرى قطيعات بث الثلاث . قالت بحماسة :

— جئت بكامل عدتي وعتادي ، والذتي تقرئك السلام وقد سرها أن أزورك وأسليك ، وفى هذا الصحن فطائر صنعتها ميج ، ويسرها أن تتذوقها لتقتنع بمهارتها ، أما بث فقد أصرت أن أحمل لىك قطيعاتها عسى أن تجد فيها شيئاً من التسلية . وكنت أخشى أن تضايقك القطيعات ولم أكن أريد أن أحضرها معي ، ولكن قلبي لم يطاوعني على إيلام بث إذ كانت شديدة الرغبة فى أن تسهم بنصيب من الترفيه عنك .

وزايل لورى خجله الشديد ، فضحك من القطيعات ، وأقبل على زائرتة يحدثها فى غير تردد أو حرج .

وكشفت چو الغطاء عن الصحن ، فظهرت الفطائر الشبيهة مزينة بزهور من آبي ، فقال باسمأ :

— إن منظرها جميل ، وحرام أن أفسد هذا الجمال بالتهامها .

قالت :

— إنها هدية بسيطة ، وقد أردنا بها أن نعبر عن ودنا لك . فاطلب

إلى خادمك أن تحفظها لك حتى يحين موعد الشاي . هذه فطائر بسيطة ،
وستجدها سهأة المضم ، شهية المذاق .

وتلفتت حولها تتأمل الغرفة وقالت :

— يا للحجرة المريحة !

قال :

— إنها بالفعل مريحة ، ولكنها فى حاجة إلى التنظيم ، والخادما

هنا فى غاية الكسل ، ولست أعرف كيف أجبرهن على العمل ؟

قالت ، وهى تنهض من مكانها :

— أنا أرتبها لك فى دقيقتين ، فالرماد أمام المدفأة تزيله الفرشاة

هكذا ، وهذه الأشياء يستقيم شكلها هكذا ، والكتب توضع هنا ،

والزجاجات فى الناحية الأخرى ، وأفضل أن أدير الأريكة حتى لا تواجه

الضوء ، وفى رأيى أن وسائدها محشوة أكثر مما يجب . والآن . نظمت

الغرفة وانصلح كل شىء .

وكانت على حق ، فقد استطاعت فى خلال حديثها المرح أن

تضع الأشياء فى مواضعها ، فإذا بالغرفة تبدو جميلة أنيقة مريحة .

ووقف لورى يتبعها بأنظاره صامتاً ، فلما انتهت من عملها ، ودعته إلى

الجلوس على الأريكة ، نددت عنه تنهدة عامرة بالرضا . قال يشكرها :

— جميل منك أن تفعلى هذا كله ، وقد رتبها كما أريد تماماً . هلا

تفضلت بالجلوس على هذا المقعد الكبير ، وسمحت لى أن أسلى ضيفتى ؟

قالت :

— بل أنا أسليك ، فهل تحب أن أقرأ لك ؟

والفتت نحو مجموعة كبيرة من الكتب ، فقال لها :

— شكراً ، فقد قرأت هذه الكتب كلها ، وأفضل أن نتبادل

الحديث إذا شئت .

قالت :

— في مقدورى أن أتكلم طول النهار ، وتقول بث لإنى متى بدأت

فن العسير أن أنتهى .

سألها باهتمام :

— من منكن بث ؟ أهى الفتاة الصغيرة ذات الحدود الوردية ،

التي تقضى معظم الوقت فى البيت ، وتخرج أحياناً وفى يدها سلة

صغيرة ؟

أجابت :

— نعم ، إنها فتاة مدهشة ، وأنا أحبها من صميم قلبى .

قال :

— والحسنة هى مبيج؟ وذات الشعر المجعد هى آى على ما أعتقد ؟

قالت چو :

— كيف عرفت ؟

واهر وجه لورى خجلا ، ولكنه أجاب فى صراحة :

— كثيراً ما أسمعكن تنادين بعضكن بعضا ، وأراكن أحياناً تنتقلن بين أرجاء البيت ، وعندما تتركن نافذة الهوم مفتوحة ، وتضئ الأنوار في الداخل ، أشاهدكن تجلسن مع والدتكن حول المائدة ، فيخيل إلى أنني أتأمل لوحة زيتية رائعة . إلى أقصى معظم الأوقات وحيداً ، وقد فقدت والدى منذ زمن طويل ، وحرمت متعة الأسرة ، وعندها أرى ستائركن مرفوعة ، يسوقني الإغراء إلى التطلع نحوكن ، فأستمحيكن عذراً لحرأقي .

وانحني على الموقد يحرك نيرانه ، فرأت چو في وجهه مظاهر تأثر بالغ ، يحاول جاهداً أن يخفيه ، وكانت الفتاة بطبعها طيبة صريحة ، فألمها أن تقتله الوحدة ، وهي بأمرها وأخواتها سعيدة مرحة ، قالت في صوت ناعم يفيض بالحرارة والحنان :

— لن نسدل الستائر بعد اليوم ، ويسرنا أن نتطلع إلينا متى شئت ، ورأني أن تزورنا في بيتنا ، وتشاركنا في جلساتنا ، وسوف تعجب بوالدتي كل الإعجاب ، لأنها امرأة عظيمة بمعنى الكلمة . ولن تندم على زيارتنا ، فستغفرك والدتي بأكوام من الخبز ، وتغني لك بث إذا أردت ، وترقص لك آمي في خفة الطيور ، وسأضحكك أنا وميج على معدات مسرحنا الطريف ، وهكذا نقضي معاً أمتع الأوقات وأبهجها .

ولكن أيسمح لك جلدك بزيارتنا ؟

قال ، وقد ازداد وجهه إشراقاً :

— أظنه يوافق إذا طلبت إليه والدتك ، فهو طيب رغم مظهره
الخشن ، ولا ينعنى من أن أفعل ما أريد ، وكل ما يخشاه أن أثقل
على الأعراب .

قالت :

— لسنا أغراباً ، إنما نحن جيران ، ولن تثقل علينا بزيارتك ، وقد
كنا نود معرفتك من زمن طويل ، وقمنا في سبيل ذلك بمحاولات كثيرة .
نحن أسرة ودود ، ومع أننا نزلنا هذه البقعة من عهد قصير ، فقد صرنا
أصدقاء لأهل الحى كله .

قال :

— إن جدى يعيش مع كتبه فقط ، ولا يهتم بما يحدث فى الخارج ،
ورائدى لا يسكن معنا ، ولذلك لا أجد رفيقاً أخرج معه ، فأضطر إلى
البقاء فى البيت وحيداً معظم الوقت .

قالت :

— لست أتفق معك فى هذه السياسة ، ورأى أن تزور وتزار ،
حتى يزداد أصدقاؤك ، وتتوافر لك أسباب الترفيه ، ولا تخش الحجل ،
فإنه مع المثابرة يزول .

واحمر وجه لورى مرة ثانية ، ولكنه لم يغضب من كلامها ، فقد
كانت ملاحظتها الجريئة ، عامرة بالعطف والحنان .

قال يغير الموضوع :

— أنتحين مدرستك ؟

أجابت :

— إنى لا أذهب إلى المدرسة ، لأننى رجل أء . . . أقصد فتاة أعمال وأشتغل وصيفة لعمة عجوز نائرة المزاج .

وفتح الفتى فه يسألها أمراً ، ولكنه أمسك عن الكلام قبل أن ينطق به خشية أن تظن به التطفل .

وأعجبت چو بأدبه ، ولم تر بأساً من أن تسليه قليلا بأحوال عمها ، فشرعت تصف له العجوز النائرة ، وكلها المدلل السمين ، وبيغاءها التى تتقن الحديث باللغة الإسبانية ، ثم مكتبتها العامرة بأجمل المؤلفات والمصنفات . وسر الفتى يتحدثها سروراً بالغاً ، فلما روت له ما حدث يوم حضر سيد عجوز أنيق ينحطب عمها ، فغافلته البيغاء الخبيثة ، واختطفت شعره المستعار من فوق رأسه الأصلع ، استلقى لورى على ظهره مقهقهاً ، وسالت الدموع على خديه لفرط الضحك ، فأطلت إحدى الخادمت برأسها من الباب ، تطمئن على سيدها الصغير .

ورفع الفتى إليها وجهها ضاحكاً وقال :

— يالها من قصة ، امض فى الحديث بالله عليك ، فقد أفادنى الضحك كثيراً .

ومضت چو فى حديثها ، وقد طربت لنجاحها العظيم ، فقصت عليه أخبار تمثيلياتها ، وأنباء خططها ، وأحوال عالمها الصغير ، الذى

تعيش فيه مع أخواتها آمنة ، ثم انتقل الحديث إلى الكتب ، فوجدت لمزيد سرورها ، أنه يحب القراءة أكثر مما تحبها .

قال لها الفتى ، وهو ينهض من مجلسه :

— إذا كنت تحبين الكتب إلى هذا الحد ، فهيا بنا إلى غرفة المكتبة

ولا تخشى شيئاً ، فجدى ليس بالبيت .

قالت في اعتزاز بشجاعتها :

— لست أخشى أحداً .

فنظر إليها نظرة ملؤها الإعجاب ، وتصور ما قد يحدث إذا تصادف أن اصطدمت مثل هذه الفتاة الجريئة بجده وهو في ثورة من ثوراته . ولكنه قال :

— أعتقد ذلك فلست ممن يخاف الناس .

وكان البيت دافئاً ، فسار بها لورى من غرفة إلى غرفة ، وهى تتأمل ما حولها باهتمام شديد ، حتى وصلا إلى حجرة المكتبة ، فما إن ولحت جواربها حتى صفقت بيديها طرباً ، على عاداتها كلما رأت شيئاً يعجبها . وكانت الجدران مغطاة برفوف انتظمت عليها مئات الكتب والمؤلفات ، وأركانها مزينة بالتماثيل والصور ، وكان فيها — فضلاً عن ذلك — خزائن زجاجية ، تحوى نقوداً وتحفاً تاريخية ، وتحيط بهذه الخزائن مقاعد وثيرة وموائد أنيقة ، وكان أجمل ما فى الغرفة كلها بدفأة واسعة ، صنعت من القرميد المنقوش .

وتهدت چو ، وهى تغوص فى أعماق مقعد مكسو بالمخمل الناعم ،
وجعلت ترسل النظر إلى ما حولها بإعجاب واغتباط . قالت :
— يا للثراء الممتع ! ثيودور لورنس ، أعتقد أنك أسعد أهل الدنيا
كلها .

فهز الفتى رأسه ، وقد أسند ذراعيه إلى مائدة قبالتها ، وقال :
— لا يعيش الإنسان على الكتب وحدها .
وقبل أن ينتهى من حديثه ، تعالى رنين الجرس فى البهو الخارجى ،
فقفزت الفتاة من مجلسها ، وقالت بخوف :
— إنه جدك . . . رحماك يا إلهى !
أجاب الفتى بنجيب :
— ظننت أنك لا تخافين أحداً ؟ !

فقالت تتظاهر بالشجاعة ، وإن ظلت أنظارها عالقة بالبواب :
— إنى خائفة قليلا ، ولست أرى فى الحقيقة داعياً لذلك ، فقد
استأذنت والدتى فى زيارتك ، ولا أعتقد أن صحتك ساءت بحضورى .
قال الفتى :

— بل أفادتنى زيارتك كثيراً ، وأشعر بتحسّن عظيم ، وكل ما أخشاه
أن تكونى قد تعبت لكثرة الكلام ، ولكنها كانت قصصاً ممتعة حقاً ،
ولم يطاوعنى قلبى على قطعها .

ودخلت الخادم تعلن حضور الطبيب ، فقال لورى لحو :

— أبيضيرك أن أتركك لحظة واحدة ، حتى أستقبل الطبيب ؟
أجابت :

— اذهب إليه ، ولا تبالي بي ، فأنا سعيدة في هذه الغرفة الساحرة .
وخرج الفتى ، فقامت جوتجول في أنحاء الغرفة ، وتتسلى بما فيها ،
إلى أن وصلت إلى لوحة زيتية كبيرة لمستر لورنس العجوز ، فوقفت
تنظر إليها بتأمل شديد ، وسمعت الباب يفتح خلفها ، فقالت دون
أن تدبر رأسها :

— لست أراه وسياً كجدي ، ولكنه يعجبني ، فعيناه صريحتان ،
وجبينه المقطب يفيض بالقوة والصلابة ، وأعتقد أني لن أخاف منه إذا
قابلته .

قال من خافها صوت خشن :
— أشكرك يا آنسة .

ولبالغ دهشتها ، رأت مستر لورنس العجوز يقف وراءها ، فتخضب
وجهاً بحمرة الحجل ، وأسرعت دقات قلبها ، وعندما تذكرت ملاحظتها
أمام صورته ، تملكها رغبة ملححة في أن تطلق ساقها للريح ، وتعود إلى
بيتها بأسرع ما تستطيع ، ولكنها كرهت أن تفعل ذلك ، حتى لا يتهمها
أخواتها بالجن ، ويضحكن منها .

واستقر رأيها على البقاء ، وشجعها على ذلك أن رأت في عيني
العجوز طيبة وحناناً ، لم تلمسهما في صورته الزيتية قبل حضوره . قال

الجد ، في صوت أكثر خشونة من ذي قبل :

— إذا فأنت لا تخافيني يا آنسة ؟

قالت :

— ليس كثيراً ياسيدى .

قال :

— وترين جدك أكثر وسامة مني ؟

قالت :

— إلى حد ما ياسيدى .

— وجبيني المقطب يفيض بالقوة والصلابة ؟

قالت :

— أظن ذلك يا سيدى .

قال :

— ومع كل هذا أعجباك ؟

— نعم ، أنت تعجبني يا سيدى .

وسر العجوز بجدتها ، فضحك ضحكة قصيرة ، وصافحها مرحباً ،

ووضع إصبعه تحت ذقنها ، ورفع وجهها إليه يفحصه ملياً ، قال ،

وهو يومئ برأسه :

— لقد ورثت عن جدك أخلاقه وشكله ، وكنت أفخر بصداقته ،

لا للحسن معشره وحسب ، فقد كان أيضاً رجلاً شجاعاً أميناً صادقاً .
 وارتاحت الفتاة لكلامه كل الارتياح ، فزال عنها خوفها السابق ،
 وقالت :

— أشكرك ياسيدى .

سألها فجأة :

— ماذا كنت تصنعين بحفيدي ؟

أجابت :

— أردت أن أكون له جارة طيبة .

ثم روت له القصة من بدايتها إلى نهايتها ، وكيف أتت لزيارة
 لورى ، قال .

— أتظنين أنه يحتاج إلى صحبة مرحة ؟

قالت بلهفة :

— بلا شك ، ياسيدى ، إنه وحيد ، وصحبة الشباب تفيده ،
 وكلنا فتيات مع الأسف ، ولكن يسرنا أن نرفه عنه ما استطعنا ،
 فما زلنا نذكر الهدية الفاخرة ، التي بعثت بها إلينا في ليلة العيد .

قال :

— لا . . . لا . . . إنها فكرة الصبي ، ولكن كيف حال المرأة

الفقيرة ؟

قالت :

— تحسنت صحتها يا سيدى .

ثم شرعت تقص عليه فى عبارات سريعة أخبار آل هامل ، الذين بادرت أمها إلى مساعدتهم قبل الأغنياء . قال :

— إنها طريقة أبيها فى فعل الخير ، وقد أخذت عنه قلبه الكبير ، فأخبرها بأبنى آت لزيارتها فى يوم قريب .

ودق الجرس فى هذه اللحظة ، فاستطرد الجد قائلاً :

— حان موعد الشاى ، ونحن نتناوله مبكراً من أجل الصبى ، فابق معنا ، واستمرى فى أن تكونى لحفيدى جارة طيبة .

قالت :

— كما تريد يا سيدى .

قال ، وهو يقدم لها ذراعه تستند إليه ، حسب التقاليد القديمة :

— لو لم أكن أريد بقاءك ، ما دعوتك إلى البقاء .

وسارت بجانبه إلى غرفة الشاى ، وعيناها تلمعان طرباً ، لما سوف

تقصه على أخواتها عندما تعود إلى البيت . قالت فى نفسها :

— ترى ماذا تقول ميج ، فيما حدث اليوم ؟

هتف العجوز متعجباً :

— ماذا دهمى الصبى ؟ !

فقد كان لورى يهبط السلم جرياً ، ثم توقف دهشاً ، عندما

طالعه المنظر العجيب : منظر چو تستند إلى ذراع جده المخيف .

نظرت الفتاة بانتصار ، فقال لجلده معتذراً :

— لم أكن أعلم بعودتك ياسيدى .

قال الجلد :

— فهمت ذلك من جريك على السلم ، تعال معنا إلى الشاى ،

وكن مضيفاً كريماً أيها الصغير .

ثم جذب شعر الفتى مداعباً مدللاً ، وتقدم بجو نحو غرفة المائدة ،

وكان لورى يسير خلفهما ، ويقوم بحركات فكاهية ، كادت الفتاة

تنفجر معها ضاحكة . وجلس الثلاثة معاً ، فلم يتكلم الجلد كثيراً ،

وقنع بارتشاف أربعة أقداح من الشاى صامتاً ، وكان طول الوقت ،

يراقب الصغيرين فى مرحهما ، ويصغى إلى أحاديثهما البريئة المسلية ،

فلم يفته ذلك التغير العجيب الذى انتاب لورى : فقد كان الصبى

مشرق الوجه ، متورد الوجنتين ، يتحدث بنشاط وحيوية ، ويضحك

عن سرور حقيقى لا يشوبه التصنع . قال مستر لورنس فى نفسه :

— صدقت الفتاة فيما قالته لى ، فالصبى يحتاج إلى ألفة ، وأتوقع

له خيراً فى صحبة أولئك الفتيات . فقد أعجبتة جو بصراحتها وخشونتها ،

وأدرك أنها تفهم نفسية الصبى ، كما لو كانت صبياً مثله .

ولو كان آل لورنس من أولئك « المتخطرين » على حد تعبير جو ،

ما أقبلت الفتاة على معرفتهم ، أو سعت إلى صداقتهم ، إذ كانت تكره

مثل هذا اللون من الناس ، وتشعر فى حضرتهم بمنتهى القلق ، ولكنها

لمست في أسرة لورنس بساطة اجتذبتها إليهم مطمئنة راضية .
وعندما انتهت وجبة الشاي ، استأذنت چو في الانصراف ،
ولكن لورى استبقاها ، ليربها شيئاً جديداً ، ثم خرج بها إل بيت
الأزهار ، فخيل إليها أنها تعيش في حلم جميل ، فقد كان ذلك البيت
الزجاجى قطعة من الفن الرفيع ، مماشيه ممهدة ، وأزهاره يانعة ،
وجدرانه لامعة ، وأضواؤه خافتة ، وكرومه دائية القطوف . وانحنى
لورى على الشجيرات يقطف أبهى زهورها ، حتى اجتمعت له باقة
جميلة ربطها بشريط حريرى ، وقال في غبطة وانشراح :
- أرجو أن تحملى هذه الباقة إلى والدتك ، واشكرى لها أن سمحت
لك بزيارتى ، فقد كنت خير دواء لمرضى .

وعاد الاثنان إلى البيت ، فوجدا مستر لورنس يقف أمام المدفأة
في إحدى غرف الجلوس الكثيرة ، فاسترعى اهتمام چو معزف كبير ،
سألت لورى في إجلال واحترام :
- أتعزف عليه ؟
قال فى تواضع :
- أحياناً .

قالت :
إذا اعزف لى مقطوعة ، فأنا أحب أن أسمع موسيقاك ، لأخبر
بث .

قال :

— ألا تعزفين أنت أولاً ؟

قالت :

— يؤسفنى ألا أستطيع ، فقد كنت أغبى من أن أتعلم العزف ،
ولكننى أحب الموسيقى من كل قلبى ، ونغماتها تشجبنى وتطربنى .
وعزف الصبى مقطوعة ، استمعت إليها جو ، وأنها مدفون فى باقة
الزهور ، وكان الصبى عازفاً ممتازاً ، فازداد تقديرها له ، وتضاعف
احترامها لمواهبه . وتمنت لو أمكن بث أن تسمع عزفه المتقن ، ولكنها
لم تجهر بأمنيئتها هذه ، إنما أغرقته بمدبحها وإطرائها ، حتى استبد به
الحجل ، وتورد وجهه بدماء الحياء ، وانبرى جده إلى إنقاذه فقال :
— كففاك إطراءً له يا آنسة ، فإن المبالغة فيه مفسدة للأخلاق ،
وربما كان عزفه جيداً ، ولكننى كنت أفضل أن يظهر براعته فيما هو أهم
من الموسيقى . أذاهبة أنت ؟ إذأ ، دعبنى أشكرك على زيارتك ، واحلى
تحببى لوالدتك ، ومساء الخير يادكتورچو!

وصافحها بعطف ، غير أنه كان يبدو ساهماً واجماً ، كما لو أن
أمراً ضايقه ، فلما بلغت الفتاة ردهة البيت ، سألت لورى عما أغضب
جده ، فهز رأسه ، وقال :

— كل ما فى الأمر أنه لا يرتاح إلى اهتمامى بالموسيقى .

قالت :

— ولماذا ؟

قال :

— لن أخبرك الآن ، وربما فعلت ذلك فى يوم من الأيام .

وسارت إلى الباب ، فقال لها :

— كنت أود أن أصحبك فى طريق عودتك ، ولكنى مريض كما

تعلمين ، فخذى معك خادمنا چون .

قالت :

— لا داعى لذلك ، فلست طفلة صغيرة ، والمسافة بيننا وبينكم

خطوات معدودات ، فى اللقاء ، وأرجو أن تعنى بصحتك .

قال :

— أعدك بذلك ، فهل تزورينى مرة ثانية ؟

قالت :

— إذا وعدت بزيارتنا عندما تشفى .

قال :

— أعدك بذلك .

قالت :

— مساء الخير يا لورى .

قال :

— مساء الخير يا چو . . . مساء الخير !

جلست چو إلى أخواتها تحدثهن بما جرى في بيت لورنس ،
 فاستنفدت العصر كله في حديثها ، إلى أن انتهى رأيهن جميعاً إلى وجوب
 زيارة الجار الطيب ، فقد أثار حديث چو اهتمامهن ، وجعل كل
 واحدة منهن تشعر أنها مستجد في البيت الكبير شيئاً يهمها ويسليها ،
 فمسز مارش تحب أن تستعيد مع مستر لورنس العجوز ذكريات أبيها
 العزيز ، وميج مشوقة إلى رؤية بيت الأزهار ، وبث تحلم بالمعزف
 الكبير ، وآمى تلهف على رؤية الصور والتماثيل .
 قالت چو لأمها :

— ترى لماذا يكره مستر لورنس أن يهتم لورى بالموسيقى ؟

قالت :

— لست أدري على وجه التحقيق ، وإن كنت أظن أن مرد السبب
 إلى ابنه ، والد لورى ، فقد تزوج إيطالية تحترف الغناء ، وكان الزواج
 على غير رغبة أبيه ، فغضب العجوز المتكبر ، ولم يرض بزيارة ابنه
 أو رؤيته سنين طويلة . وولد لورى في إيطاليا ، وظل بها بعض الوقت ،
 فلما توفي والده ، أحضره جده إلى بيته واحتضنه ، ولم يكن الصبي قوى
 البنية ، فأحاطه مستر لورانس بكل ألوان الرعاية ، خشية أن يفقده كما
 فقد والده من قبل ، ولذلك تربيته إلى اليسوم حريصاً يخاف على لورى
 من التعرض للبرد أو الاختلاط بالناس . ولقد ورث الصبي عن أمه حبها
 للموسيقى ، ولعل الجلد يخشى أن يتخذها حفيده مهنة في يوم من الأيام ،

ولا شك أن الموسيقى تذكر مستر لورنس بزواج ابنة الإيطالية ، التي لم يحبها أبداً ، مع أنها كانت امرأة طيبة ، فتثيرة الذكرى وتغضبه .

قالت ميج بدهشة :

— يا لها من قصة !

وقالت جو :

— يا للغباء ، لماذا لا يغدو لورى موسيقيا إذا كانت ميوله كذلك ؟

ولماذا ينغصون عليه حياته بإرساله إلى جامعة يكرهها ؟

قالت ميج ، وكانت عاطفية إلى حد ما :

— عرفت الآن السر في عينيه السوداوين ، وشعره المجعد ، وذوقه

السلیم . إنه الدم الإيطالي ، والإيطاليون قوم مهذبون .

صاحت بها جو ، ولم تكن عاطفية كأختها :

— وماذا تعرفين عن عينيه السوداوين وذوقه السلیم ؟ إنك لم تتحدثي

إليه مرة واحدة .

قالت ميج :

— ولكني رأيته في الحفلة ، وسمعت ما رويته لنا عنه ، خصوصا

عندما شهاك بدواء ناجع ، لأنها لباقة تدل على ذوق سلیم .

قالت جو :

— كان يقصد هدية الفطائر .

قالت ميج :

— أنت ساذجة يا طفلي ، لقد كان يقصدك أنت .
 وكانت فكرة جديدة لم تطرأ لحومن قبل ، فانسعت عينها دهشة ،
 وقالت :

— أكان يقصدني حقا . ؟

قالت ميج ، بلهجة الخبيرة المحنكة :

— أنت غبية لا تميزين الإطراء عندما يأتيك .

قالت چو :

— لا يهمني الإطراء ، وأكون شاكرة إذا اقتصدت في سخافتك ،

فأخشى أن تفسدى على سروري بزيارته . إن لورى صبي لطيف ،
 ويعجبني منه خلق كريم . ولن أسمح بعبارات الإطراء أن تقف بيننا ،
 وأرجو أن نغدق عليه بالعطف لأنه يتيم ، لقد وعد بزيارتنا ، فهل
 تسمحين له بذلك يا أماه ؟

قالت الأم :

— بالرحب والسعة ، وأملئ يا ميج ألا تفسدى جمال الصداقة

البريئة بهذا الكلام ، ودعى الأطفال أطفالا أطول وقت مستطاع .

قالت آمی :

— إنني حقيقة في الثانية عشرة من عمري ، ولكني لا أشعر بأنني

طفلة ، فما رأيك يا بث ؟

وكانت بث ساهمة كعادتها ، تسبح بذهنها في عالم الخيال ،

ولم تسمع كلمة من حديث أختها ، قالت :
 - كنت أفكر في لعبة الحجاج وكيف نمضى فيها إلى قصر الأمانى ،
 عبر الصعاب والآلام ، وينجى إلى أنه بيت لورنس العامر بألوان المباحج
 والمسرات .

قالت چو ، وقد أعجبها تشبيه أختها :
 - علينا أولاً أن نشق طريقنا إليه .



الفصل السادس « بث » في قصر الأمانى

مضى بعض الوقت قبل أن تزورينات مارش بيت لورنس ، وعندما دخلنه بعد عقبات ، وجدت بث أنه حقيقة « قصر الأمانى » . وكان مسر لورنس العجوز قد قام بزيارة الأسرة كما وعد ، فلقيته البنات بخوف ورهبة ، ولكنه جلس إلى أمهن يتذاكر معها سيرة أبيها في الأيام الخوالى ، ويشير إلى صديقه القديم بلهجة الإعزاز والاحترام ، ثم داعب البنات وتحدث إليهن واحدة بعد واحدة ، فأنسن له ، وانقشعت الرهبة عن نفوسهن ، اللهم إلا بث الذى اختارت بجمائها الشديد أن تبقى على

مبعدة ، بالرغم من محاولاته الكثيرة في كسب ثقها وودها .

وزالت العقبة الأولى بزيارة مستر لورنس ، وكانت العقبة الثانية فقرهن وثناء لورى ، فقد كن يشعرون بالحرج البالغ إذا بعث الصبي إليهن هدية لا طاقة لهن على ردها بالمثل ، ثم كشفت لهن الأيام مدى اعترافه بحميلهن عليه ، وتقديره لرعايتهن إياه ، واغتيباطه البالغ بعطف مسز مارش التي كانت تعامله معاملة الابن العزيز . وقوت هذه الحقائق صداقتهن بلورى ، فذهب شعورهن بالحرج ، وتلاشى إحساسهن بالفوارق . وأصبح بينهما المتواضع ملاذاً له يأوى إليه كلما أعوزته أسباب المسرة والهناء ، ولم يجد البنات غضاضة في مبادلته الهدايا دون اعتبار كبير لقيمها المادية .

هكذا نمت صداقة جديدة ، وترعرعت سريعاً مثلما ترعرع النبات في أرض طيبة ، ومضت الأيام مفعمة بدواعى السرور والتسلية : فقد أحبين لورى جميعاً ، وعمرنه بعطف خالص لا زيف فيه ولا اصطناع ، واستجاب الصبي لشعورهن النبيل ، فكان يؤمن بأنهن فتيات مدهشات عن جدارة واستحقاق ، ويجد في رفقتين البريئة متعة أنسته وحدة اليم ووحشته . وسرعان ما ظهر أثرهن في اتجاهاته ، فإن حياتهن العامرة بالكد والكفاح في طلب الرزق ، أورثته نخجلا من دعتة وفرغه ، واشتاقته نفسه أن يكون مفيداً مثلهن ، ولكن صداقتهن رغم ذلك شغلته عن كتبه ودروسه . فكان يهرب منها إلى بيت مارش ساعات كل يوم ،

مما اضطرر معه رائده مستر بروك ، إلى إطلاع جده على الأمر . قال العجوز في غير قلق :

— دعه يستمتع بعطلة طيبة ، تقويه على الدرس فيما بعد ، ولا تخش عليه ، فإن جارتى الطيبة ترى الصبي متعباً مجهداً ، وتعتقد أنه في حاجة شديدة إلى الصحة والمتعة والتسلية . ولا شك أنها على صواب ، وأظن أنني غالبت في الحد من حريرته ، فدعه بالله عليك يفعل ما يشاء ، ما دام سعيداً ، واطمئن إلى أنه في سلام وأمان ، مع الأسرة التقية الطاهرة فلقد استفاد بحنان مسز مارش أضعاف ما استفاد بما فعلناه له طوال السنوات الماضية .

ومضى الوقت كأسعد ما يكون ، في روايات تمثيلية ، ولوحات حية ، ونزهات في الحقول ، وانزلاق على جليد الشتاء . ثم أمسيات مرحة يقضيها لورى مع صديقاته في غرفة الجلوس القديمة ببيت مارش ، وحفلات أنيقة تقام بقصر لورنس الكبير . وأتيح لميج أن تزور بيت الأزهار ، وتخرج منه وفي يدها باقات الأزهار ، والتهمت چو ما في المكتبة الجديدة بنهم القارئة الجشعة ، وأضحكت السيد العجوز بنقدتها الطريف للكتب . أما آمي فكانت تشبع هوايتها للرسم بنسخ الصور الجميلة المعلقة على جدران القصر . كل هذا ولورى يقوم بدور المضيف ، في أسلوب السيد المهذب الكريم .

ولكن بث رغم تشوقها إلى المعزف الكبير ، لم تقو على جمع شجاعتها ،

لتزور « قصر النعم » كما كانت تسميه ميج . ولقد ذهبت يوماً مع ميج ، ولكن السيد العجوز . الذي لم يكن يعرف مدى حياتها ، حذق في وجهها بشدة . وتطلع إليها من تحت حاجبيه الكثرين ، وناداهما بصوت عال ، فأفزعهما بذلك كل الفرع . وفرت إلى بيتها هاربة ، وقالت لأمها لأنها لن تذهب إلى القصر الكبير مرة ثانية ولو كان فيه معازف الدنيا كلها ، فلقد أفرعها العجوز حتى ارتجفت ركباتها ، وأحست لفرط الرعب كأنها تكاد تسقط على الأرض . ولم يجد الإقناع فيها ، ولم تفلح الحجج في إزالة مخاوفها ، إلى أن وصل الخبر بطريقة ما إلى مسامع مستر لورنس ، فعمل على إصلاح الأمر بنفسه ، وفي إحدى زياراته القصيرة لآل مارش ، وجه الحديث إلى الموسيقى بطريقة لبقة . وتكلم عن أشهر المطربين الذين رأهم على المسارح . وأجمل المعازف التي سمع بها ، ثم قص حوادث وقصصاً طريفة ، اجتذبت بث إليه من ركنها البعيد ، فنتسلت تقرب منه خطوة خطوة . وكأن يداً خفية تدفعها إليه . وأخيراً وقفت وراء مقعده تصغى بشوق إلى حديثه ، فلم يبد مستر لورنس اهتماماً بوجودها ، ولم يلتق بالا إليها ، إنما جعل يتكلم عن لورى ومدرسيه ودروسه ثم قال فجأة كأن فكرة عرضت لذهنه بالمصادفة :

— يسرنى أن أهمل الصبي مرانته الموسيقية ، بعد أن انشغل بها إلى حد الهوس . ولكنني أخاف أن يفسد الإهمال المعزف ، فهل أجد في بناتك الصغيرات من تتفضل بالعزف عليه بين وقت وآخر ؟

وخطت بث إلى الأمام خطوة ، وقد ضمت يديها إلى صدرها ، حتى لا يدفعها السرور بهذا الخبر إلى التصفيق في حضرة العجوز ، فقد كان الإغراء شديداً ، وبجرد التفكير في استعمال المعزف يبهراً أنفاسها . وقبل أن تجيب مسز مارش ، قال مسر لورنس باسمًا :

— ولن يقلق العازفة شيء ، فأنا أجلس بمكتبي في نهاية البيت ، ولورى لديه ما يشغله ، وبعد الساعة التاسعة لا يقترب من غرفة الجلوس أحد من الخدم ، فان شاءت إحدى بناتك أن تأتي ، فأهلا بها وسهلا ، في أى ساعة تروق لها .

ونهض عن مقعده كأنه يريد الانصراف ، فاستقر رأى بث أن تقول كلمة بعد أن أوقعها مسر لورنس في شباك حيلته ، ولكن العجوز لم ينتظر حتى تتكلم ، وقال :

— أخبرى الفتيات بهذا الأمر ، فإذا رغبين بعد ذلك عن الحضور فلا بأس عليهن .

وهنا أمسكت يد صغيرة بيده الكبيرة ، ورفعت بث إليه وجهاً مفعماً بالشكر ، وقالت في جد يشوبه الحياء :

— بل يرغبين في الحضور كل الرغبة .

فسألها بصوت خفيض ، حتى لا يفزعها مرة ثانية :

— أنت الموسيقية منهن ؟

قالت :

— أنا بث ، أحب الموسيقى من كل قلبي ، ويسرنى أن أعزف
بيثك ، إذا لم يسمع عزفي أحد .

وقالت متأدبة ، وجسدها يرتجف حياءً :

— وإذا لم يزعجك حضوري .

قال :

— لن تزعجى أحداً يا عزيزتي ، فالبيت خال معظم النهار ،
وأكون شاكراً إذا حضرت في أي وقت تشائين .

قالت :

— هذا كرم منك ياسيدي .

ونظر إليها بعطف بالغ ، فاحمر وجهها خجلاً ، ولكنها لم تشعر
بالخوف منه ، وضغطت بيدها الصغيرة على يده الكبيرة ، تعبر له
عن شكرها في صمت . وربت السيد العجوز بيده على شعرها ، ثم
انحنى وطبع على جبينها قبلة ، قال بصوت خفيض لم يسمعه إلا بعض
من يجلسون :

— كانت لي حفيذة لها مثل عينيك ، فليحفظك الله يا عزيزتي .

ثم قال لمسز مارش وهو يسرع بالانصراف :

— طاب يومك ياسيدتي .

وسرت بث بصنيع مستر لورنس سروراً لا مزيد عليه ، ولما كانت
أخواتها في الخارج ، وليس بالبيت من يعلم بالنبا العظيم ، فقد طارت

جربا إلى أفراد أسرته من الدمى الكسيحة ، وجعلت تروى لها كيف
تفتحت لها أبواب الجنة على يدي جارهم العجوز . وغنت في تلك الليلة
كما لم تغن من قبل ، وعندما استسلمت للنوم كانت أصابعها طوال
الليل تلعب على وجه أختها آى كأنه المعزف المنشود .

وفي صباح اليوم التالي ، قبعت بث وراء النافذة ، حتى رأت مسر
لورنس وحفيده يغادران البيت ، وعند ذلك استجمعت شجاعتهما ،
وبعد تردد طويل ، دخلت القصر من بابها الجانبي ، وسارت تسترق
الخطى كفأر مذعور ، إلى غرفة الجلوس ، حيث يوجد المعزف الذي
تحلم به . وكان على المعزف بعض كتب موسيقية ، سجلت فيها مقطوعات
سهلة الأداء ، فأخذتها بأصابع مرتجفة ، وهي تتوقف بين لحظة وأخرى ،
لتصيحخ السمع خشية أن يكون أحد على مقربة منها . وعندما تأكدت
أن البيت هادئ ساكن ، جلست إلى المعزف ، وما إن لمست أصابعها
مفاتيحه ، حتى انقشع عنها خوفها تماماً ، ونسيت نفسها عن كل شيء
في غمرة نشوتها بأنغام الموسيقى الممتعة .

وظلت تعزف وتعزف حتى أتت حنة تدعوها إلى تناول الغداء ، ولكن
غبطتها كانت قد ذهبت بشهوتها للطعام ، فجلست مع أخواتها إلى
المائدة تبسم ولا تصيب من صحنها شيئاً .
وتوالت زياراتها لغرفة الجلوس ، وكانت في ذهابها وإيابها ، أشبه
بطيف موسيقى يقبل ويدبر ولا من يراه .

ولم تشعر قط بأن مستر لورنس ، كثيراً ما كان يفتح باب مكتبه بهدوء بالغ ، ليختلس السمع إلى الأنغام الكلاسيكية ، التي يفضلها على غيرها من الأنغام ! وكذلك لم تر لورى ، وهو يقف خارج الباب حارساً أميناً ، يحمىها من الانزعاج ويرد عنها تطفل المتطفلين . وكانت تجلس إلى لورى في بيتها أحياناً ، فتجد في أحاديثه العابرة عن الموسيقى ، خير مرشد وموجه ، ولكنها لم تكن تعرف أن الكتب التي تجدها على المعزف ، لم تترك في مكانها اعتباطاً ، إنما كان يضعها لورى بيده خصيصاً لها ، ويختارها بنفسه بعد طول تفكير وتدقيق ، وعاشت بث في نعيم مقيم ، ولعل رضاها بهذا النعيم وتقديرها له ، كانا فاتحة لخيرات أخرى ما زالت الأيام تخفيها في جعبتها . قالت لأمها بعد انقضاء أسابيع على بداية هذه الحوادث :

— أريد يا أماه أن أصنع خفياً لمستر لورنس ، فقد، عمرنى بكرمه ، وأحب أن أعبر له عن شكرى وامتنانى .

فقالت مسز مارش ، التي لم تكن ترد لبث طلباً ما استطاعت :

— إنها فكرة طيبة ، وسيسره أن تعبرى له عن شكرك بهذا الأسلوب

اللطيف .

واشتركت ميج وچو في مناقشة فكرة الهدية ، واجتمع رأى الأسرة على طراز الخف ، واشترت لوازمه ، في أسرع وقت ، ثم عكفت بث على صنعه ليلاً ونهاراً ، وكانت في عملها نشيطة دقيقة ، فلم ينقض وقت

قصير حتى انتهت من إعداد هديتها على أحسن وجه . وطوت الخف في لفافة أنيقة ، واستعانت بلورى على كتابة بطاقة الإهداء التى سترققها بها ، ثم تسللت إلى القصر ذات صباح ، ووضعت هديتها على مكتب العجوز ، قبل أن يستيقظ من النوم .

وهدأت نفسها بذلك بعض الهدوء ، ولاذت ببيها تنتظر النتائج ، ولكن يوماً كاملاً مضى ولم يأتها خبر بوصول الهدية إلى صاحبها ، وانصف اليوم الثانى بلا جديد ، فانتابها المخاوف ، وخشيت أن تكون الهدية لم تقع من نفس العجوز موقِعاً حسناً .

وخرجت في العصر لبعض شأنها ، واصطحبت معها دميها الكسيحة تفرج عنها ، فلما عادت إلى البيت ، استقبلتها أربعة رءوس تطل من النافذة في انتظارها ، وصاح بها أخواتها مهلات مرحبات ، وسمعت صوتاً يقول لها :

— جاءتك رسالة من السيد العجوز ، فأسرعى بالدخول لتقرأها

وصاحت آى من النافذة تقول :

— لقد بعث إليك . . .

ولكن الجملة لم تتم ، فقد صفقت أخواتها من النافذة ، لينعنها من الكلام ، ودخلت بث ترتجف انفعالا ، فاستقبلتها أخواتها على باب البيت ، وقدنها إلى غرفة الجلوس في مظاهرة مرحة .

هتفن بها في صوت واحد :

— انظري هناك . . انظري .

وتطلعت بث إلى حيث أشرن بأيديهن ، فامتقع لونها لفرط الدهشة والسرور . فقد رأت في ركن الغرفة معزفاً صغيراً جميلاً ، وضعت على غطائه الأسود اللامع . رسالة كتب على طرفها ، « إلى الآنسة بث مارش » .

فشهقت بث . وأحست كأن قواها تخور فجأة فاستندت إلى جو خشية أن تهزمها الحوادث المتتابعة المثيرة ، فتسقط على الأرض .
قالت :

— أهذا المعزف لي ؟

أجابت جو ، وهي تناو لها رسالة العجوز :

— أجل . . . إنه لك أيها المملك الصغير ، فقد بعث به إليك أطيّب عجوز في هذه الدنيا ، هاك الرسالة والمفتاح .

ودفنت بث رأسها في ثوب أختها جو ، وقالت لها بانفعال شديد :

— اقرئي الرسالة عني ، إن المفاجأة تذهلني وتعجزني . . .

وفضت جو الرسالة ، وراحت تلوديباجتها ضاحكة :

« إلى الآنسة مارش .

« سيدتي الفاضلة . . .

وصاحت آمي وقد أعجبها الأسلوب التقليدي في الرسالة :

— ليتني أتسلم رسالة بهذه الديباجة الرائعة .

واستأنفت جو قراءة الرسالة فقالت :

« لبست في حياتي خفوفاً لا عداد لها ، ولكن هديتك فاقتها جمالا
وحسناً ، فقد عرفت كيف تختارين ألواني المحببة ونقوشى المفضلة ، وثق
أن خفك الجميل سيدكرنى دائماً بصانعتة الكريمة ، فاسمحي للسيد
العجوز أن يعبر لك عن بعض شكره وامتنانه ، وتقبلي منه معزفاً عزيزاً .
كان في يوم من الأيام ملكاً الحفيدته المحبوبة التى فقدتها صغيرة قبل سنوات .
فتفضلى يا سيدتى بقبول وافر الشكر والامتنان .

ودمت لصديقك الوفى وخادمك المطيع

جيمس لورنس »

وكانت بث تصغى للرسالة ، وجسدها يرتجف لفرط الانفعال ،
فقالت جو تخفف عنها :

— إنه شرف عظيم يا بث ، فقد حدثنى لورى بقصة هذه الحفيدة ،
وكم كان مستر لورنس العجوز يحبها ويحل ذكراها ، فيحتفظ بكل صغيرة
وكبيرة من مقتنياتها ، فليس أمراً هيناً أن يعطيك معزفها ، ولعله وجد
شبيهاً لها في زرة عينيك وشغفك بالموسيقى .

ورفعت ميج غطاء المعزف تستعرض محاسنه ، وقالت :

— انظرى إلى حوامل الشموع المعدنية ، وتأملى فى جمال الحرير
الأخضر المطرز بالورود الذهبية ، ثم حامل الأوراق المنقوش ، والكبرى
الأنيق المستدير .

قالت آى ، وما زالت مشغولة البال بأسلوب الرسالة التقليدى :
 — تصورى أن يختم الرسالة بـ « خادمك المطيع جيمس لورنس » ؛
 والله لأحدثن بنات المدرسة بذلك لأذهلهن وأدهشهن .
 وكانت من عادة الطاهية حنة أن تشترك فى أفراح الأسرة وأتراحها ،
 فقالت :

— جربى المعزف يا حبيبى ، وأسمعنا صوته الجميل .
 وجلست بث إلى المعزف ، وتحركت أصابعها على مفاتيحه ،
 فانبعث منه أنغام شجية ، قال البنات لأنهن لم يسمعن لها مثيلا من قبل .
 وكان المعزف من نوع جيد ، وأوتاره حديثة الضبط والشد ، ولكن سعادة
 البنات به ، ضاعفت محاسنه وزادت فى آذانهن أنغامه روعة وجمالا . قالت
 جو تداعب بث :

— عليك أن تذهبي إلى مسر لورنس ، وتقوى بواجب الشكر له .
 وكانت تظن أن أختها لن تجرؤ على الأخذ بنصيحتها ، ولكن بث
 أدهشت الأسرة كلها بقولها :

— هذا أقل ما يجب ، وأفضل أن أبادر الآن بالذهاب ، قبل أن
 أطيل التفكير فى الأمر فينتابنى الخوف .

وقامت إلى السلم تهبط درجاته بعزيمة قوية ، وخرجت إلى الحديقة
 فتخطت السور ، ثم دخلت بيت آل لورنس . .

وأبحمت جراً الفتاة السنة أخواتها عن الكلام ، فقالت حنة مندهشة :

— هذا أعجب ما رأيت في حياتي ! لقد طيرت الهدية صوابها ، ولو كانت بكامل عقلها ، مارضيت أن تذهب .

ولكن ما فعلته بث بعد ذلك كان أعظم وأروع ، فقد طرقت باب المكتبة ، غير مترددة ، فلما أذن لها الصوت الحشن بالدخول ، سارت إلى مستر لورنس مباشرة في جرأة أدهشته . ومدت يدها تصافحه ، وقالت بصوت خافت مرتجف :

— جئت ياسيدى ، أشكر لك . . .

وتطلع إليها العجوز بحنان بالغ ، فاحتبست الكلمات في فمها ، وتلاشت عبارات الشكر عن ذهنها . ولم تعد تذكر سوى أنه رجل فجع في حفيدته التي كان يحبها من كل قلبه ؛ وعندئذ غلبتها العاطفة ، فطوقت عنقه بذراعيها ، وطبعت على جبينه قبلة حارة .

ولو أن سقف الدار طار إلى السماء السابعة ، ما دهش العجوز دهشته بهذه القبلة . فتأثر كل التأثر ، ورفع الصغيرة بين ذراعيه ، وأجلسها على ركبتيه . ولصق خده المجدد الحشن بجدها الناعم الوردى في رضا غامر ، كأنما حفيدته قد عادت إلى الحياة ثانية .

ولم تعد بث تخافه أو تخشاه ، وزال التكلف بينهما ، فجعلت تتحدث إليه بغير حرج مثلما تتحدث إلى صديق عزيز . عرفته طول عمرها . ولما حان موعد عودتها إلى البيت ، رافقها إلى بابه ، وانحنى أمامها

مودعاً ، وقد رفع القبعة عن رأسه بيده ، ثم عاد على أعقابهِ رافع
الرأس مشدود الصدر .

ورأى البنات من النافذة ، كيف عادت أختمن إلى البيت برفقة
السيد الأنيق ، وكيف انحنى لها مودعاً باحترام وتقدير ، فظفن بالغرف
يرقصن ، وقالت ميج وهي تضرب كفا بكف :
— لقد انقلبت الدنيا ، ولا أظن يوم القيامة ببعيد .



الفصل السابع « آمی » تقاسمی الهوان

امتطی لوری صهوة فرسه ذات صباح ، ومر بیت مارش ، فلما رأى
البنات فی النافذة ، لوح لمن بسوطه محییاً ، فقالت آمی تتفلسف علی
عادتها :

— ألا یبدو « مفرساً » بمعنی الكلمة !

صاحت چو ترد العدوان عن صديقتها :

— إنه مثل للهدوء والوداعة ، فكيف تجرئين علی إهانته بهذا

الوصف ؟

قالت أمى تدافع عن نفسها :

كنت أمتدح أسلوبه فى ركوب الخيل ، ولم أنفوه بكلمة تهينه .
فانفجرت چو ضاحكة ، وقالت لأخواتها :
— إن هذه الغيبة تقصد « فارساً » ، فتقول « مفترساً » .

قالت أمى :

— كفاك ضحكاً ، فإهى إلا فلة لسان ، على حد تعبير مدرسنا

مستر دافيز .

ثم أردفت بصوت منخفض كمن تتحدث إلى نفسها ، وإن كانت
فى الحقيقة تريد أن يسمعها أخواتها :

— ليتنى أملك من المال بعض ما ينفقه لورى على فرسه .
فضحكت چو مرة أخرى ، ولكن ميج قالت فى عطف :
— أمتحاجين إلى نقود ؟

قالت :

— كل الأحتياج ، فقد أغرقت نفسى فى الديون ، ولن أحصل
على مصروفى القادم ، قبل أسبوع طويل .

فقالت ميج فى جند :

— أى ديون ، يا أمى ؟

قالت :

— اقترضت من زميلاتى اثنتى عشرة « مصاصة » ليمون ، وعلى

أن أردما إلى صاحباتها في أقرب وقت ، ولكن نقودى نفذت ، وأمى
تكروه أن آخذ من المتجر على الحساب .

ونظرت مبيج إلى آمى باهتمام ، وقالت وهى تحاول أن تحتفظ بهدوها :
— كانت كرات المطاط ، فى أيا منا ، تسلية مدرسية شائعة ، فهل

حلت « مصاصات الليمون » محلها ؟

قالت آمى :

— كلنا نشترىها إلا البخيلات الشحيجات ، ونحن نضعها فى
أدراجنا ، ونمصها خلصة أثناء الدرس ، وأحياناً نقايض عليها بالأقلام
الرصاص ، أو الخواتم الزجاجية ، أو الدمى الورقية ، أو غير ذلك من
اللعب المسلية . وقد اعتدنا أن نعبر بها عن شعورنا ، فإذا كانت لى
صديقة مثلاً أعطيها واحدة ، وإذا كانت لى عدوة وقفت أمصها أمامها
ولا أدعوها لى مشاركتى عليها ، وجرى العرف على أن توزع كل بدورها
مصاصات الليمون على صاحباتها ، وقد أخذت بهذه الطريقة عدداً
كبيراً منها ، ويمز فى نفسى أن أعجز عن ردها ، لأنها ديون شرف ،
لا يصح أن نسكت عليها .

وأخرجت مبيج كيس نقودها ، وقالت :

— كم تحتاجين لتسددي ديونك كلها ؟

قالت :

— يكفينى ربع ريال ، وربما تبقى جزء منه أشترى لك به نصيباً من

مصاصات الليمون ، أفلا تحبينها ؟

قالت ميح :

— لا ! لا أحبها ، فخذى نصيبي ، وهاك النقود ، فلا تسرعى
بإنفاقها إذ أننى أكسبها بشق النفس كما تعلمين .

قالت أمى :

— شكراً لك وألف شكر ، لا يمكنك أن تتصورى كم تفرجين عنى
بذلك ، فقد مضى على أسبوع كامل لم أشر فيه واحدة ، وكذلك لم
أقبل من زميلاتي هداياهن حتى لا تتضاعف ديونى فيصعب على ردها .
وفى صباح اليوم التالى ذهبت أمى إلى مدرستها متأخرة ، ومع أن
زميلاتهن كن جالسات فى الفصل عند وصولها ، فقد ساقها فرحها إلى
إطلاعهن على السر ، فأرتهن من تحت درجها الكيس البنى الممتلىء
بالمصاصات .

وسرى الخبر فى الفصل بسرعة البرق ، فعرف البنات جميعهن أن أمى
أحضرت معها أربعاً وعشرين « مصاصة » . وأنها تنوى توزيعها على من
تحب ، فتلطفن معها تلطفاً بالغاً ، حتى إن كيتى براون دعتهما إلى
حفلة القرية ، وأصرت ماري كنجزلى على أن تقرضها ساعة يدها إلى
نهاية الحصة . أما جينى سنو ، تلك الشيطانة الصغيرة ، التى لم تسكت
طوال الأسبوع الأخير عن معايرتها بمعجزها عن شراء المصاصات ، فقد
كفت عن عدوانها ، وعرضت على أمى إجابات المسائل الحسابية الصعبة .

ولكن تودد جيني لم يلق قبولاً من أمي ، إذ كانت الفتاة لا تزال تذكر لغريمتها ما كانت تقول عن « صاحبة الأنف المفرطح التي لا تمنعها فرطحة أنفها من شم حلوى الأخربات » ، لا ، ولم تغفر لها إشاراتنا الجارحة إلى « أولئك الفتيات اللاتي يستجدين الحلوى بلا كرامة أو إباء » . وكانت هذه الأقوال تحز في قلب أمي ، فلما رأيت تودد جيني ، بعثت إليها برسالة سريعة تهدم فيها آمالها وتقول : « لا حاجة بك إلى الأدب المصطنع ، فلن تنالني مصاصة واحدة ! »

وتصادف أن كان بالمدرسة ذلك اليوم زائر كبير ، حازت خرائط أمي إعجابه وتقديره ، فأثار النصر الحديد أحقاد جيني سنو ، وحفزها إلى طلب الانتقام ، وكان انتقاماً ذريعاً ، قلب الأمور رأساً على عقب : فعندما انصرف الضيف الكبير عن الفصل ، قامت جيني إلى مستر دافيز ، كأنها تريد أن تسأله سؤالاً ، ثم همست في أذنه بأن أمي تخفي في درجها ، كيساً مليئاً بالمصاصات .

كان مستر دافيز قد حرم على البنات إحضار المصاصات إلى الفصل ، وتوعد بالعقاب الشديد من تحدثها نفسها بمخالفة أوامره ، وكان قد أفلح قبل ذلك في منع « اللبان » والقصاص والجرائد والمجلات ، ووضع حداً لأسماء التذليل التي كان البنات ينادين بها بعضهن بعضاً . ومع أن قيادة البنات أشق على النفس من قيادة البنين ، خصوصاً على رجل عصبي المزاج مثل مستر دافيز ، فقد استطاع المدرس بطغيانه

وشراسته أن يبسط نفوذه على خمسمائة فتاة في المدرسة ، وأفلح في ترويضهن على احترام أوامره . وكان مستر دافيز مدرساً ممتازاً ، يتقن اللغة اللاتينية كما يتقن الحساب والجبر والهندسة . ولكن أساليبه في معاملة البنات كانت خشنة جافة ، وتصادف في ذلك اليوم أن كان ثائراً أكثر من المعتاد . لصداع شديد ألم برأسه . ولأن البنات لم يظهرن براعة كافية أمام الزائر العظيم . والحقيقة أن البنات ذقن منه الأمرين في ذلك الصباح حتى وصفته « بالساحر الشرير » و « الدب الثائر » ، فجاءت وشاية جيني ناراً على بارود ، إذ امتقع وجهه امتقاعاً شديداً ، وضرب المنضدة بقبضته ضربة تنذر بالخطر . ثم صرخ قائلاً :

— انتباه .

وهدأ الفصل لكلمته هدوء القبور ، وتطلعت عيون البنات إلى وجهه القبيح في خوف وفاق . قال :

— آى مارش . تعالى هنا .

وتظاهرت آى بالثبات ، ولكن قلبها كان يرتجف بين ضلوعها ، وقبل أن تخطو إليه خطوة واحدة ، قال على غير انتظار :

— وأحضرى معك مصاصات الليمون الموضوعة في درجك .

همست زميلة ذكية تحذرها :

— لا تأخذها كلها !

وعملت آى بالنصيحة ، فتركت في الدرج ست قطع ، وحملت

الباقى إلى منضدة مستر دافيز ، وكلها أمل أن تلين رائحة الحلوى الشهية
قلبه الجامد ، ولكنه قال باشمئزاز :

— أهذا كل ما معك ؟

وعجز لسانها عن الكذب ، فأجابت متلعثمة :

— ليس كله .

قال :

— إذا عودى وأحضرى الباقى .

وخضعت لأمره والأسى يملأ قلبها . قال :

— أهذه مصاصاتك كلها ؟

قالت :

— ليس من عادتي أن أكذب يا سيدى .

قال :

— أعتقد ذلك ، والآن خذى هذه القاذورات ، اثنتين فائتين ،

وألقي بها من النافذة .

ونددت عن البنات تهدة الحزن والأسى ، فقد ذهبت أوامر مستر

دافيز بآخر أمل فى إنقاذ المصاصات الشهية .

وفى مزيج من الحجل والغضب ، خضعت آى لإرادة مدرستها ،

فكانت تحمل فى كل مرة مصاصتين ، تذهب بهما إلى النافذة ،

فتلقيهما ، ثم تعود لتحمل مصاصتين أخريين ، وهكذا قطعت

الطريق بين منضدة الأستاذ ونافذة الفصل اثنتى عشرة مرة ، فى كل منها يتعالى هتاف أولاد الشارع ، وهم يتلقفون الحلوى ، وكأنما تهبط عليهم من السماء . وإذا كانت خسارة التلميذات فى المصاصات عظيمة ، فقد كان الخطب أفدح بالهتاف ، إذ كان بينهن وبين هؤلاء الغلمان عداً قديم مكين .

وبعد أن ألفت أمى آخر مصاصتين ، قال المدرس الطاغية يحدث التلميذات بصوت رنان :

— منذ أسبوع ، يابنات ، حذرتكن من إحضار المصاصات إلى الفصل ، وتوعدت من تخالف أمرى بالعقاب ، وليس من عادق أن أسكت عن العصيان ، أو أرجع عن كلمة قلها ، ولذلك أراى مضطراً إلى عقاب هذه الفتاة جزاء وفاقاً على استهتارها بالنظم ، أمى مارش . . . مدى يدك .

وانتفضت أمى فزعاً ، وسحبت يدها إلى ما وراء ظهرها ، وتطلعت إليه فى صمت يفيض بالاستعفاف . وكانت أمى تلميذته المفضلة ، وكثيراً ما كان دافيز العجوز يمتدحها ويثنى عليها ، فلما رآها تنظر إليه هكذا لان قلبه الجامد ، وحدثته نفسه بأن يغفر لها غلطتها ، ولكن شاء سوء الحظ فى تلك اللحظة أن ينكر التلميذات أساليب التأديب البدنى ، فندت عن إحداهن آهة غضب خافتة ، لم تغب عن اذن المدرس العنيد ، فقرر أن يمضى فى عقابه ، ليحد من عصيان تلميذاته .

هكذا تقرر مصير آى ، وكان رده على نظرتها المستعطفة ، أن قال
بخشونة مرة أخرى :

— آى مارش . . مدى يدك .

وشعرت آى برغبة شديدة فى البكاء ، ولكن كبرياءها منعها
من أن تطلق العنان لدموعها ، فأطبقت فكها فى تحد ، وأعطته يدها
يضرب عليها ، واختارت أن تتقبل العقاب صامتة ساكنة لا يتحرك لسانها
بكلمة ولا يرمش لها جفن .

وكانت الضربات موجعة ، ولكن شعورها بالمدلة والهوان كان أشد
ألماً من الضرب ، إذ كانت هذه أول مرة تعاقب فيها بهذه الصورة .
قال مستر دافيز بعد أن أعطاها نصيحتها من لسعات مسطرته :
— والآن فنى على المنصة ، حتى تنتهى الحصة .

وكان هذا أبشع ما فى المسألة كلها ، فقد كانت آى تأمل أن ينتهى
الأمر عند الضرب فيسمح لها أستاذها بعده بالرجوع إلى درجها ، بين
عطف صديقاتها وشماتة عدواتها ؛ أما أن يمضى فى عقابها ، فيأمرها
بالوقوف على المنصة ، لتواجه نظرات التلميذات ، وما زال هوان الضرب
عالقاً بها ، فأمر لا تحتمله نفسها الوديعه الحساسة . وتطاحت الآلام
فى صدرها ، وخيل إليها أن تلقى بنفسها على الأرض باكية صارخة ، لكن
منعها من ذلك أن تذكرت جينى سنو وشايتها الحبيثة ، فثارت كرامتها ،
وأقسمت فيما بينها وبين نفسها أن تحتمل الهوان بشجاعة إلى النهاية .

وصعدت المنصة ، واختارت من جدار الغرفة نقطة عالية ، تثبت عليها أنظارها ، لتتحاشى بذلك مواجهة عيون زميلاتها . ولزمت مكانها لا تتحرك عنه ، وقد امتقع وجهها امتقاعاً شديداً ، شغل البنات به عن تتبع الدرس ، فتطلعن إليها آسفات مشفقات .

ربما يعتقد بعضنا ، أن الحادث في جد ذاته بسيط تافه ، وأن العقاب أمر شائع في كل مدرسة ، ولكن آى ذات الكبرياء والحس المرهف ، وجدت فيه محنة نفسية بالغة لا ينسى عارها مدى الحياة ، فقد تعودت الفتاة منذ مولدها إلى ذلك اليوم المشئوم ، أن تعامل بالعطف والحسنى . ولم يسبق لأحد أن حطم كبرياءها بمثل هذا العقاب المذل المهين ، فكان ألمها النفسى به أضعاف ألمها البدنى . وبلغت ثورتها الصامتة أقصاها ، عندما تذكرت أمها وأخواتها ، وتصورت كيف يكون وقع الخبر عليهن .

ومضى بها ربع ساعة ، كل دقيقة منها في طول الدهور ، ثم شاءت الأقدار أن ترحمها ، فانتهت الحصّة وانتهى معها العقاب . قال مستر دافيز في قلق ملحوظ :

— عودى إلى درجك يا آنسة مارش .

ونظرت آى إليه طويلا ، ومن غير أن تنطق بكلمة واحدة ، أعطته ظهرها وخرجت من الفصل مسرعة إلى غرفة الملابس حيث جمعت حاجاتها وأداتها ، وانصرفت بها عن المدرسة إلى الأبد .

ودخلت البيت في حالة يرثى لها ، وروت لأسرتها ما حدث ، فانزعج له أخواتها ، وعكفت چو على كف أمي المتهب تدلكه بالجلسرين ، وهي في ذات الوقت تتوعد دافيز . وتطالب بالقبض عليه ومحاكمته على وحشيته . فتؤيدها الطاهية حنة في هذا الرأي ، وتتحنى لو كان في استطاعتها أن تقلو الشرير كما تقلو البطاطس في الزيت . وروحت مسر مارش عن ابنتها بكلمات هادئة مقتضبة ، ولكن جسدها كان يرتجف لفرط ثورتها المكبوتة ، إذ كانت بطبعها أمماً طيبة ، تقدر كبرياء الصغار كما تقدر كبرياء الكبار ، وتنكر أساليب المسوة في العقاب والتربية . وعرف بنات الفصل بهرب أمي من المدرسة . ولاحظن بعيونهن الثاقبة كم تأثر دافيز بذلك فنحا طول اليوم نحو الهدوء والسكون . وقبيل انتهاء اليوم الدراسي رأين چو تدخل عليه غاضبة ، فتضع أمامه خطاباً من أمها ، ثم توجه إلى درج أختها ، فتأخذ منه الكتب والأدوات ، وتنصرف بها ، وهي تحك قدميها على منفضة الباب ، كأنها تزيل عن حذائها آخر غبار للمكان البغيض .

وفي مساء اليوم المشهود ، قالت مسر مارش لبنتها أمي :

— أكره أن يعاقب البنات بالضرب ، وأرى في أساليب مسر دافيز ما يتنافى مع أصول التربية ، فخير لك أن تبقي في البيت ، وتشغلي وقتك بالدرس مع بث ، حتى أكتب لأبيك أسأله رأيه قبل أن أبعث بك إلى مدرسة أخرى .

فتهدت آمی وقالت بلهجة الشهيدة المعذبة :
 — يوسفنى أن أحرم من صحبة زميلاتى ، ولكنى سعيدة بترك المدرسة ،
 وأتمنى من صميم قلبى أن يتركها بالمثل التلميذات كلهن ، حتى يصاب
 دافيز بالإفلاس ، فيغلق أبواب مدرسته .

قالت أمها بصرامة :

— لست آسفة لحرمانك من زميلاتك ، لأنك أخطأت وخالفت
 القوانين ، فحق عليك العقاب .

قالت آمی فى انزعاج :

— أيرضيك هوانى أمام المدرسة كلها ؟

أجابت أمها :

— ليست القسوة طريقتى فى التربية ، ولكنك تلقيت درساً مفيداً ،
 يقوم اعوجاجك ويصلح ما اختل من أمرك ، فقد داخلك الغرور
 أخيراً ، واستكبرت بما وهبك الله من فضائل ، ونصيحتى أن تعيدى
 النظر فى أحوالك ، فالغرور مقتلة العبقرية ، والتواضع سر العظمة ،
 وليس أجهل ولا أنبل من أن نغضب بفضائلنا دون أن نشدق بها ، وإلا
 نفر الناس منا ، وكرهوا الاختلاط بنا .

وكان لورى يلعب الشطرنج مع چو فى جانب من الغرفة ، فلما
 سمع كلام مسز مارش قال :

— هذا عين الصواب ، فالتواضع ثروة خلقية طائلة ، فأنا أعرف

فتاة بارعة في الموسيقى ، تعزف أجمل المقطوعات بمهارة فائقة ، ولكنها مثل
 في التواضع الجميل ، ولو صارحتها برأي في فنها الأصيل ما صدقتني .
 إنها فتاة فريدة في نوعها ، تعيش بمواهبها الممتازة ، ولا تكاد تحس بها .
 واجتذب حديث الموسيقى بث ، فسارت إلى لورى تقول :

— إني غبية بليدة ، أفلا تعرفني بهذه الفتاة الممتازة ، لتساعدني

وترشدني ؟

أجاب لورى بمرح واغتباط :

— ولكنك تعرفينها كل المعرفة . وما من إنسان يساعدك مثلها .
 وأدركت بث في هذه اللحظة أنه كان يعنيه بالكلام ، فاحمر وجهها
 احمراراً شديداً ، وغلبها الخجل ، حتى دفنت وجهها في وسائد الأريكة .
 واغتبطت جو بكلام لورى كل الاغتباط ، وسرها أن يمتدح
 أخمها المفضلة بهذا الأسلوب اللبق الجميل ، فتساهلت معه في لعبة
 الشطرنج ، وتركت له الفرصة لينتصر عليها ، وغرضها من ذلك أن تكافئه
 على حسن صنيعه . واستمدت بث من الحديث شجاعة وقوة ، فقامت
 إلى « البيانو » تعزف عليه أجمل مقطوعاتها ، ولورى يغنى معها بصوت
 شجي ، فعاد المرح إلى جو الأسرة ، وانقضى المساء في رضاً وحبور .

ولما حان وقت العشاء ، انصرف الفتى إلى بيته ، فقالت آى لوالدتها

بعد طول تأمل وتفكير :

— أليس لورى مثقفاً ماهراً ؟

أجابت والدتها :

— إنه بالفعل كذلك ، فقد نال من التعليم قسطاً موفوراً ، وعنده من المواهب العالية ذخيرة طيبة ، وسيغدو رجلاً ممتازاً إذا لم يفسده التدليل .
سألت أمى ثانية :

— وليس مغروراً أيضاً ؟

قالت :

— أبدأ ، ولذلك نجبه ونصطفيه .

قالت أمى فى عجب وتأكيد ، كأنها اهدت فجأة إلى سر الحياة :

— جميل أن يكون مثقفاً أنيقاً ممتازاً ولا يباهى بما حباه الله به

من خير جزيل .

قالت مسر مارش :

— إن المواهب الحققة لا تخفى على أحد ، ولسنا فى حاجة إلى

استعراضها لإظهارها ، فالحديث عنها يضعف قيمتها مهما بلغت .

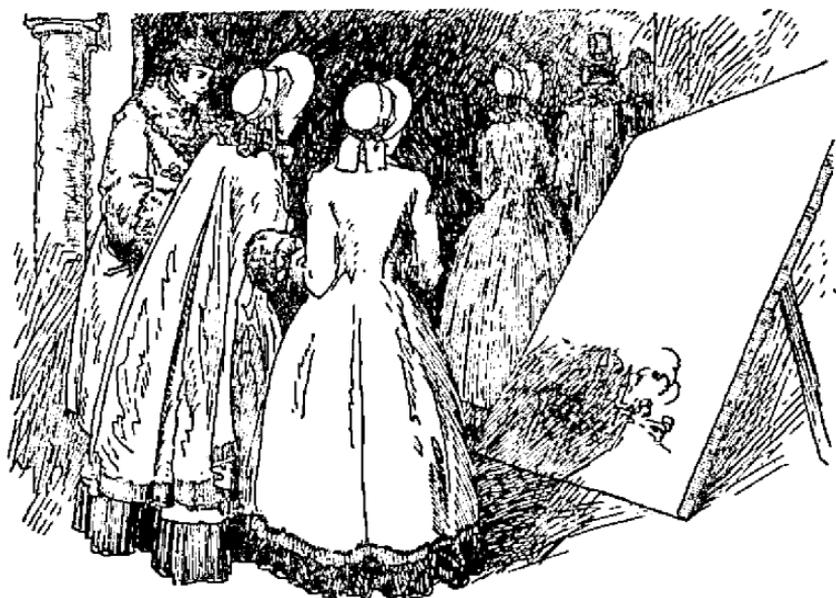
قالت چو تم موعظة أمها :

— وشأن من تفاخر بمواهبها ، شأن من ترتدى دفعة واحدة كل

ثيابها وقبعاتها وأشرطتها ، لتباهى بها الناس ، فتكون النتيجة أن يسخر

المجتمع منها ، ويحتقرها .

وانتهت المحاضرة بعاصفة من الضحك !!



الفصل الثامن

« چو » في قبضة الشيطان

في عصر يوم من أيام السبت ، دخلت أمي حجرة أختها ميچ ،
وچو ، فوجدتهما تستعدان للخروج ، وتحاولان إخفاء ذلك عنها ،
فأثار تكتمهما فضولها ، قالت :

— إلى أين تذهبان ؟

أجابت چو بجدة :

— هذا شأننا ، وليس لطفلة مثلك أن تتدخل فيما لا يعنينا .
وتأملت أمي لرد چو ، ولكنها قررت أن تعرف إلى أين تذهب أختها ،

ولو اضطرت في سبيل ذلك إلى الإلحاح ساعة كاملة ، فليس أشق على كرامة الصغار من أن يقال لهم إنهم صغار ، وليس أبغض إلى نفوسهم من أن يؤمروا بالانصراف إلى اللعب . وكانت آى تعرف أن ميج لا ترفض لها طلباً ، فتوجهت إليها بالسؤال في دلال وظرف ، قالت :

— أخبريني ياميج إلى أين تذهبان ، فرجما ذهبت معكما ، إذ أن بث تلهو بدماهما ، ولست أجد تسلية أقتل بها وحدتى .

ولان قلب ميج ، فشرعت تشرح لها الأمر ، قالت :

— لا يمكنك الذهاب معنا يا عزيزتى ، لأنك لست مدعوة .
فقاطعتها چو بصبر نافد وقالت :

— اسكتى ياميج وإلا أفسدت كل شىء .

والتفتت إلى آى تقول :

— لن ترافقينى يا آى ، فاسكتى ، ولا تنوحى نواح الأطفال .

قالت آى :

— أعتقد أنكما ستذهبان مع لورى إلى مكان ما ، فقد رأيتكم فى

الليلة الماضية ، تهماسون وتضحكون معاً على الأريكة ، ثم سكتم عند دخولى ، ألسن مصيبة فى حدسى ؟ .

قالت چو :

— نعم ، فاسكتى الآن ، وكفى عن مضايقتنا .

وسكتت آى ، وأمسكت لسانها عن الكلام ، ولكنها دارت بعينها

تفحص ما حولها ، فلما رأته ميج تدس مروحة في جيبها ، صاحمت تقول :
 — لقد عرفت وجهتكما ، فأنما ذاهبتان مع لورى إلى المسرح ،
 لمشاهدة تمثيلية « القلاع السبع » .

وسكنت قليلا ، ثم قالت بإصرار :

— ما كان يلبق أن تخفيا الأمر عني ، فقد أذنت لى والدتى
 بمشاهدة التمثيلية ، ولدى من النقود ما يكفى شراء تذكرة .

فقال ميج تهديها :

— أصغى إلى لحظة ، كوني فتاة عاقلة : إن والدتى لا توافق على
 ذهابك هذا الأسبوع حتى تبرأ عينك تماما ، فلا تؤذيها أضواء المسرح .
 ولن تفوتك بذلك الفرصة ، ففي الإمكان أن تشاهدى الرواية مع بث وحنة
 فى الأسبوع القادم .

قالت آمى ، تستعطفهما وترجوهما :

— ولكن متعنى تكون أعظم إذا ذهبت معكما ومع لورى ، فهلا
 سمحتما لى بذلك ؟ لقد ضاق صدرى بالبقاء فى البيت ، ولم أخرج منذ
 أصابنى البرد . ونفسى تنوق إلى بعض التسلية . فدعيني أذهب معكما
 باميج ، وأعدك بأن أكون دائما فتاة طيبة مطيعة .

ولان قلب ميج مرة ثانية ، فقالت تسأل چو :

— ماذا لو أخذناها معنا ؟ لن تمنع والدتى فى ذهابها إذا دثرناها

بمعطف سميك .

فقاطعتها چو غاضبة ، وقد غاظها أن تقلب آمی خططها ، وتفسد
بذمها ما كانت ترجوه من متعة وتسلية . قالت :

— إذا أخذتها فلن أذهب معكم ، إذ أن لورى دعانا نحن الاثنتين
فقط ، فإن فى فرضك عليه شخصاً ثالثاً ، مجافاة لأبسط قواعد اللياقة ،
وثقى أنه لن يغتبط بذلك .

وكانت آمی قد شرعت تلبس حذاءها ، فأغضبها من چو كلامها
ولهجتها ، فقالت فى إصرار :

— سأذهب إذا كانت ميج تريدنى ، ولن أكبد لورى مشقة ما دمت
أملك ثمن التذكرة .

وكانت چو قد وخزت لإصبعها بدبوس فى لفتها على ارتداء ملابسها ،
فازدادت بذلك حنقاً على حتى ، فقالت غاضبة :

— إن مقاعدنا محجوزة ، ولن تجدى مقعداً بجوارنا ، فإما أن تجلسى
وحدك وهذا لا يجوز ، أو يعطيك لورى مكانه فتفقد السهرة بهجتها ،
أو يبتاع لك مقعداً رابعاً مع أنه لم يفكر فى دعوتك من بداية الأمر ،
فخير لك أن تبقى فى البيت ولا تخرجى منه .

وتوقفت آمی عن لبس حذاءها ، وجلست على الأرض تبكى بحرقة ،
فحنث عليها ميج تسرى عنها ، وتقنعها بالبقاء فى البيت ، وإذ ذاك ارتفع
صوت لورى ينادى من الطابق الأسفل ، فأسرعت الفتاتان تهبطان إليه ،
ومن خلفهما آمی تصيح وتنوح بأعلى صوتها ، فلما لم تجد من يلتفت

إليها ، أطلت برأسها من أعلى السلم ، وقالت تتوعد چو :
 - سوف تندمين على فعلتك يا چو مارش ، وترين كيف أنتقم منك .
 أجابت چو وهي تصفق الباب خلفها :
 - هراء !

وقضت الفتاتان وقتاً جميلاً ، فقد كانت « القلاع السبع » تمثيلية رائعة ، فيها كل ما يشتهي قلب چو من أمراء وأميرات وأشباح وملابس براقة ومناظر خلابة ، فجعلت الفتاة ترقب المسرح بنظرها وقلبها وحمها ، حتى ظهرت ملكة التمثيلية بشعرها الذهبي الطويل ، وعندئذ تذكرت أختها الصغيرة ، فغشى سرورها بعض الأسف والألم ، وظلت طوال فترات الاستراحة التي تتخلل الفصول ، تفكر في وعيد آمی ، وتتكهن بما قد تفعله في سبيل الانتقام الذي أندرتهأ به .

ولم يكن هذا أول خلاف ينشب بين چو وآمی ، فكثيراً ما كانت المعارك تقوم بينهما ، وتبلغ من العنف أحياناً حدّاً بعيداً . وكانت چو بطبعها سريعة الغضب عصبية المزاج ، إذا أثارها إنسان ، فقدت سيطرتها على نفسها ؛ ولكنها كانت إلى جانب ذلك طيبة القلب حسنة الأخلاق ، لا يدوم غضبها أكثر من دقائق معدودات ، يهدأ بعدها غليان مراجها ، فتعتذر في لين وأدب عما بدر منها . وكانت تعرف موطن الضعف فيها ، فتبذل جهوداً جبارة في سبيل السيطرة على غضبها ، وتعاهد نفسها في كل مرة على أن تكون مثلاً في التسامح والصبر ، ثم يثور غضبها لأمر من

الأمر ، فینفلت منها الزمام ، لتهدأ بعد قليل ، وتعتذر في لين وأدب . وكان أخواتها يعرفن فيها هذا الطبع الملائكى ، فيتعمدن إغاظتها ليستمتعن بجمال اعتذارها ، ولكن آى كانت بدورها سريعة الغضب عصبية المزاج ، ولذلك كثيراً ما كانت تصطدم بچو ، وتبلغ المعارك بينهما مبلغ العنف والشدة .

وعندما انتهت التمثيلية ، وعادت الفتاتان إلى البيت ، كانت آى تقرأ في الردهة ، وقد علت وجهها سمات الألم الدفين . وأرادت أن تعبر عن غضبها لأختها ، فتجاهلت دخولهما ، وأبت أن ترفع رأسها عن كتابها ، ورغم شوقها العظيم إلى معرفة تفاصيل السهرة ، اختارت أن ترفع عن الكلام ، تاركة لبث مهمة إشباع فضولها بأسئلتها واستفساراتها . وصعدت چو إلى غرفتها تخلع قبعها . فكانت خزانة الملابس أول ما اتجه إليه نظرها ، فقد انصب انتقام آى في آخر معركة نشبت بينهما . على قلب حاجاتها المرتبة ، وإلقائها على أرض الغرفة ، ولكنها لم تفعل ذلك في هذه المرة ، ولم تعبت بدرج أو خزانة أو صندوق ، فاطمأن قلب چو إلى أن آى نسيت وعيدها ، وصفححت عنها . ولكنها أخطأت الظن ، فقد حدث في اليوم التالى أن بحثت چو عن كراسة القصص التى تضم فيها مؤلفاتها ، فلم تجدها حيث تركتها آخر مرة ، وأقنعها البحث الدقيق بأن الكراسة اختفت ، وأن يداً خبيثة أسهمت في اختفائها .

وكان أخواتها يجلسن في الغرفة السفلى ، فهبطت الدرج إليهن
مبهورة الأنفاس ، وقالت بانفعال :

— هل أخذت إحداكن كراسي ؟

وأجابت ميغ وبث بالنفي ، وقد بانت في وجهيهما أمارات الدهشة
الصادقة ، أما آي فقد احمر وجهها قليلا ، ولم تفعل شيئاً ، وتشاغلت عن
الإجابة بتقليب نار المدفأة ، فالتجتهت چو إليها مباشرة ، وقالت لها :

— آي . . لقد أخذتها !

قالت :

— لا ، لم آخذها .

— إذآ فأنت تعرفين مكانها !

أجابت :

— لا ، لا أعرف .

صرخت بها چو :

— أنت تكذبين !

وثارت براكين غضبها المهود . فأمسكت بكتفي الفتاة بخشونة
شديدة ، انخلع لها قلب آي ، فقالت خائفة :

— لست كاذبة ، ولم آخذ كراستك ، ولا أعرف أين هي .

قالت چو وهي تهزها قليلا :

— بل تعرفين يا آي أين ذهب الكراسي ، فاعترفي من تلقاء نفسك ،

وإلا أكرهتك على الاعتراف .

فصاحت آى ، وقد ثار غضبها بالمثل :

— افعلنى ما بدا لك ، ولكنك لن ترى قصصك السخيفة مرة أخرى .

قالت :

— ولم ؟

قالت :

— لأنى أحرقتها .

فغاض الدم فى وجه چو ، وتشنجت يدها على كتفى آى ، وقالت

فى استنكار وفزع :

— ماذا تقولين ؟ أأحرقت كراستى التى تعبت فى كتابتها سنوات

طويلة ، لأنهى منها قبل عودة أبى إلينا ؟

قالت :

— نعم أحرقتها ، وقد أذرتك أمس وأقسمت أن أورثك الندم على

فعلتك ، ولقد نفذت وعيذى وأحرقتها ، فافعلنى الآن ما تريدن .

وانفجرت مراحل غضب چو ، وركبها شيطان الشر ، فجعلت تهز

أختها وتهزها . بكل ما تستطيعه من قوة وعنفة . حتى اصطكت أسنان

آى لفراط الألم والرعب . صاحت الغاضبة تقول :

— أيتها الشريرة الحبيثة ، لن أغفر لك فعلتك ما حييت ، فقد

حرمتنى من أجمل قصص كتبها .

وأسرعت ميج تنفذ آى من بين يدي چو ، وهرعت بث إلى أختها المفضلة تسرى عنها وتخفف من حدة غضبها ، ولكن چو لم تسكت حتى اطممت آى على وجهها لطمه شديدة ، لاذت بعدها بغرفها تعالج ثورتها وحيدة .

وهدأت العاصفة في الردهة السفلى ، عندما عادت مسز مارش من عملها ، وعلمت بما حدث ، فأثبت آى تأنيباً شديداً ، وبينت لها مدى الأذى الذي ألحقته بأختها ، فقد كانت تلك الكرامة مفخرة چو ، وكانت قد سكت فيها روحها وقلبا ، وتعبت في تأليف قصصها وتهذيبها ، وقضت شهوراً في تجميل أسلوبها وتنميقه ، عسى أن تستطيع نشرها في يوم من الأيام . وكانت چو قد اكتفت بالنسخة الأخيرة ، وأعدمت الأصول كلها ، فكأن آى بفعلتها قضت على جهودها طوال السنوات الأخيرة ، وأنزلت بها خسارة لاتعوض .

وخيم على البيت سكون ثقيل ، فقد جلست مسز مارش حزينة مهمومة ، وبكت بث على ما أصاب مؤلفات چو بكاء كثيراً ، كما رفضت ميج أن تدافع عن أختها المفضلة أمام قبح الفعلة التي أنتها ، فاستبد الندم بآى ، واندوت أن تعتذر لأختها في أول فرصة ، حتى تستعيد رضا الأسرة وعطفها . فلما حان موعد تناول الشاي ، وأقبلت چو على غرفة الطعام حزينة مهمومة . استجمعت آى شجاعتها كلها ، وقالت في صوت خجول ضعيف :

— إن أسنى لما فعلت بالغ يا چو ، فساحيني بالله عليك .

أجابت چو في صلابة :

— لن أصفح عنك ما حبيت .

ومنذ تلك اللحظة تجاهلت وجود آى كايه ، ولما كانت أمها وأخواتها يعرفن بالتجربة أن لافائدة ترتجي من الجدل معها وهى فى عنفوان غضبها ، فقد سكتن جميعاً عن الإشارة إلى الموضوع ، حتى يهدىء الزمن نائرتها ، فيلين قلبها .

ومضى المساء فى حزن ووجوم ، بالرغم من أن البنات كن يطرزن كالعادة بجوار المدفأة ، وأمهن تقرأ لهن كتاباً مسلياً ، فقد كان الجو خالياً من الأانس والألفة ، والأسرة فى قلق واضطراب بعد طول هدوء وسلام . وعندما أذن الوقت بالنوم ، وحان موعد الغناء ، وقفت چو بجوار المعزف صامته جامدة ، كأنها تمثال قدّ من صخر ، وانهارت قوى آى فسكتت بدورها ، ولم يشترك فى الغناء سوى ميج وأمهن ، ولكن صوتهما الجميل خذلهما فى هذه المرة ، وخرج رغم محاولتهما الكثيرة عن الأنغام على غير المعتاد .

وأوت چو إلى غرفتها ، فدخلت عليها أمها تقبلها وتهمس فى أذنها قائلة :

— لا تدعى شمس غد تشرق على غضبك ، وكونى بقلبك الكبير

غفورة رحيمة .

وأحست جو برغبة ملححة في أن تسند رأسها إلى صدر أمها ، وتبكي جهودها الضائعة ، ولكنها كانت تحتقر الدموع ، وترأها مظهرأ لا يليق بكرامة الرجال الذين كانت تمنى لو خلقت واحداً منهم ، فطوت صدرها على ألمها وهزت رأسها وقالت بصوت أجش سمعته آى من خارج الغرفة :

— لقد أخطأت خطأ جسيماً ، ولست أراها تستحق الصفح .
 وبهذه الكلمات سارت إلى فراشها ، فأنهى المساء كئيباً حزيناً .
 ومضى نهار اليوم التالى ، ومراجل غضب الفتاة ما زالت تنذر بالانفجار ، وزاد الطين بلة أن كان الجو بارداً مكفهراً ، فسقط معطفها فى الوحول أثناء سيرها فى الطريق ، وعندما وصلت إلى عمها وجلدتها فى ثورة مضاعفة ، لآتى عن التذمر والنقد والتجريح .
 وظلت ميج طوال النهار شاردة الذهن ، وكانت بث حزينة واجمة ، أما آى فقد أساءها أن يقابل اعتذارها بالرفض ، وندمت على أنها أذلت كبرياءها بطلب المغفرة من أختها ، وأحست أن موقف جو الأخير منها قد جرح كرامتها أكثر من ذى قبل ، فعادت إلى غرورها السابق ، وأمعت فى التحدث عن فضائلها ومواهبها ، ولم تنس التعريض بمن يتظاهرن بالطيبة أمام الناس ولا يعملن فى الحقيقة بأصولها ودواعيها .
 وضاق صدر جو بثثرة أختها وغرورها ، ورأت أن تفرج عن نفسها بالتهمة قليلا ، وقالت تحدث نفسها :

— كلهن بغیضات إلى قلبی اليوم . ولوری فتی کریم مرح ، ولن یردد فی الانزلاق معی علی الثلج إذا طلبت منه ، وسوف تسری عنی صحبته وتسلیبی .

وسمعت آمی ضجیح قبقاب الانزلاق ، فأغرثها نفسها بالانزلاق مع أختها ، فقالت لمیج :

— لقد أوشك الشتاء علی الانتهاء ، ولم تسنح لی فرصة الانزلاق علی الجلید بعد ، لكن لا فائدة ترجی من أن أطلب إلى هذه العنیده أن تصحبنی معها ، رغم أنها وعدتني بذلك فی يوم من الأيام .

قالت میج :

— لا تلومها ، فقد كنت البادئة بالعدوان ، وليس من الیسیر علی نفسها أن تغفر لك ما فعلته بكراسمها ، ولكن خذی قبقابك علی كل حال ، واخرجی خلفها عسی أن تكون الآن أكثر استعداداً للصفح عنك ، نصیحتی ألا تعترضی طریقها ، حتى یسری لوری عنها ویدخل بعض المرح علی نفسها ، وعندئذ انتهزی الفرصة المناسبة واعتذری لها ،

قالت آمی ، وقد راقها الفكرة :

— سأحاول :

ثم أسرعت تستعد ، وجرت خلف چو ولوری ، ولكنهما كانا قد سبقاها إلى منعطف الطريق ، ورغم أن المسافة لم تكن طویلة بین البيت

والنهر ، فعندما لحقت بهما أمي ، كانا قد شرعا في الانزلاق ، وكان لوري قد سبق زميلته إلى سطح النهر المتجمد يختبر كثافة جليده ، ويختار منه البقعة الصالحة للانزلاق ، فلم ير أمي عند حضورها ، ولكن چو رأتها ، فأدارت لها ظهرها ، وتجاهلت وجودها .

ووقفت أمي جانباً تتأمل لوري ، وهو يختبر النهر في حذر ، وقد ارتدى معطفاً سميكاً وغطى رأسه بقبعة من الفراء فبدأ كأنه أمير روسي ، وسمعته يقول لحو : دعيني أختبر الجليد قبل أن نبدأ السباق .

وأرادت أمي أن تلفت النظر إلى وجودها ، فجعلت تضرب الأرض بقدميها . وتنفخ في كفيها ، وهي تحاول عبثاً أن تلبس قبقابها بغير معونة . ولكن چو أمعنت في تجاهلها . وشرعت تنزلق في خط متعرج ، ونفسها تفيض بالرضا بما تعانیه أختها من مشقة وغبط ، فقد كان غضبها على أمي يزداد بمضي الوقت ويترعرع . قال لوري لحو :

— الزمي جانب النهر ، وإياك أن تقتر بي من وسطه . فالجليد فيه رقيق لا يحتمل ثقلنا .

وسمعت چو التحذير ، ولكن أمي لم تسمعه ، إذ كانت في شغل عن الإصغاء بمحاولة الوقوف على الجليد المصقول . ونظرت چو إليها من فوق كنفها ، وهمس الشيطان في أذنها يقول : « لا يهم إن كانت قد سمعت التحذير أولم تسمعه ، دعها تتولى أمرها بنفسها » .

وانزلق لوري إلى جانب النهر ، وتبعته چو في بطء وتأن ، وسارت

آمى إلى الوسط غير عالمة بالخطر ، فتوقفت چو لحظة ، وقد تطاحت فى صدرها رغبات مختلفة ؛ فقلبها يهيب بها أن تحذر أختها ، وشيطانها يحرضها على تركها لشأنها . وترددت چو بين الرغبتين ، ولكن ترددها لم يطل أكثر من لحظة خاطفة ، وقع البلاء بعدها فجأة : إذ انشق الجليد تحت قدمى آمى ، وغاص جسدها الصغير فى مياه النهر الباردة . وصرخت آمى عن قلب استبد به الرعب ، وفتحت چو فمها تستغيث بلورى ولكن الفرع ألجمها عن النطق وأسكنها عن الحركة ، فتسمرت فى مكانها صامته ، وجسدها يرتجف من الرأس إلى أخمص القدمين . ووضت برهة وهى جامدة فى مكانها تتطلع إلى القبعة الزرقاء الصغيرة وهى تغوص وتطفونى مياه النهر السوداء ، ثم سمعت صوت لورى يصيح بها وهو يمرق أمامها كالسهم :

— أسرعى إلى بلوح من الخشب .

ووضت الدقائق التالية وكأن چو فى كابوس مخيف : كانت تنحرك دون أن تدرى ، وتطيع أوامر لورى من غير تفكير ، وكان الفتى رابط الجأش ثابت الجنان ، فانبطح على الجليد ، وأمسك يد آمى ليحول بينها وبين الفرق ، حتى انتزعت چو من السياج الخشبي القريب لوحاً ، وحملته إليه ، فتعاون الاثنان على إنقاذها من الخطر مستعينين باللوح الخشبي ، وأخرجوا آمى إلى سطح الجليد بعد عناء سببه الفرع أضعاف ما سببه الغضب .

ودثر لورى الفتاة بمعطفه الثقيل ، وشد حولها حزامه ، وقال لها :
 - عودى إلى البيت مسرعة ، وأنت يا چو اجمعى حاجاتنا ، حتى
 أخلع عن قدي هذه القباقيب اللعينة .

وعاد ثلاثهم إلى البيت ، وآى ترنجف وتبكى وتقطر ماء . ومضت
 بالأسرة فترة عامرة بالانفعال والقلق ، حتى استسلمت الفتاة للنوم تحت
 الأغطية السميقة بجوار النار الموقدة . ولم تتكلم چو إلا قليلا خلال تلك



الدقائق القلقة ، وجعلت تروح وتجيء في الغرفة شاحبة اللون نائرة غير آبهة بثوبها الممزق ويديها الزرقاوين المجروحتين بفعل الجليد والخشب .

ولما راحت آتى في سباتها العميق المريح ، وعاد السكون في البيت ، جلست مسر مارش تضمده جروح چو وتعالجها ، فنظرت الفتاة بحزن إلى رأس أخيها النائمة ، وتصورت قسوة المصير الذي كان ينتظرها في غياهب النهر ، فقالت لأمها :

— أوثيقة أزت أنها بخير يا أماه ؟

فقالت أمها في لهجة عذبة :

— اطمئني يا عزيزتي ، فن حسن الحظ أنها لم تصب بجرح واحد ، وأعتقد أن لا خطر عليها من البرد بعد أن دثرتماها بالمعطف ، وأسرعنا بها إلى البيت .

قالت چو :

— الفضل في ذلك للورى وحده ، أما أنا فلم أفعل شيئاً ، إنما كنت السبب في سقوطها ، وأنا الملوثة على ما أصابها ، ولو ماتت ما سئل عن موتها غيرى .

وارتمت چو تحت أقدام أمها ، وانفجرت تبكى في ندم شديد ، وجعلت تروى لأمها ما حدث ، وتتهم نفسها بقسوة القلب والشر ، ثم

تنجيه إلى الله شاكرة أن أنقذ برحمته أختها من الموت . قالت في أسى :
 — إنه خلقي الثائر الغضوب ، وكم أقسمت أن أتغلب عليه وأقهره ،
 فكنت أخفق دائماً ، إذ عندما يثور غضبي ينفلت الزمام أشد عنفاً مما مضى .
 أسندت مسز مارش رأس ابنتها الحزينة إلى صدرها ، وطبعت على
 خدها المندى قبلة الحنان ، وقالت للفتاة التي زادها عطف أمها بكاءً ونحيباً :
 — اتجهي إلى الله دائماً ، واطلبي منه العون ، يقويك على غضبك ،
 ولا تستسلمي لليأس ما دمت قادرة على إصلاح الخطأ .

قالت الفتاة :

— خلقي يا أماه يورثني الحزن والأسى ، فما إن يركبني شيطان الغضب ،
 حتى أصبح وحشاً ضارياً ، وأشعر بقدرة عجيبة على إتيان الشر ، ويلد لي
 أن أرد العدوان أضعافاً مضاعفة ، وأخشى أن يقهرني الشيطان ذات يوم
 فأقوم بفعلة منكرة تفسد حياتي وتنفر الناس مني . ساعديني يا أماه
 وأنقذيني من محنتي .

قالت مسز مارش :

— سأعينك يا بنتي فكفك بكاء ، وعاهدي النفس منذ اليوم على
 ألا تكرري ما حدث . كلنا بشر يا جو ، وللبشر أخطاؤهم وإن
 اختلفت ، والسعيد من كانت أخطاؤه يسيرة ، والشقي من قضى العمر
 في التغلب عليها . لانظني أنك فريدة في حماقتك ، فقد كنتِ مثلك
 وأكثر ، ولكني روضت نفسي على الهدوء والتسامح ، فلماذا لا تفعلين

١٠ فعلت ، فتبلغين ما بلغت من راحة وهدوء وسلام .

قالت چو ، وقد أنستها الدهشة آلامها :

— أنت يا أماه ؟ لم أرك تغضبين مرة في حياتي .

قالت :

— لأنني قضيت أربعين سنة في علاج غضبي ، ولم أنجح إلا بقسط يسير . فانا أغضب كل يوم يا چو ، ولكنني تعلمت أن أخفي ثورتى عن الناس ، وأن أكتبها في قلبي وأغطيها بستار سميك من الهدوء الظاهرى . وما زلت أرجو أن أنتصر على ضعفى انتصاراً حاسماً ، وأقتلع شجرة الغضب من جذورها ، ولن أسكت حتى أبلغ غايتى ، ولا يضيرنى أن أقضى فى السعى إليها أربعين سنة أخرى .

وتطلعت چو إلى وجه أمها ، فرأت فيه أبلغ معانى الصبر والثقة بالنفس . فتعلمت من ذلك درساً بليغاً ، وأحست براحة هائلة تغمر قلبها الحزين القلق ، واستمدت من قصة أمها قوة على قهر نقيصتها . وازدادت بصراحة أمها الطيبة رغبة فى الكفاح والجهاد ، من أجل الهدوء والسلام ، وكانت تعرف أن أربعين عاماً يقضها الإنسان فى مراجعة نفسه دهر طويل . ولكن أمها لم تياس على مضى السنين ، فلماذا لا تقتنى خطواتها وتطلب الكمال متفائلة وإن طال الأمد ؟ وأحست فى تلك اللحظة كأن أمها أقرب إليها من أى وقت مضى ، فسألها :
— لاحظت يا أماه أنك تزمين شفتيك . أو تخرجين من الغرفة

مسرعة ، إذا أمعنت العمة مارش في نقدها وبلحاجتها ، فهل تكونين في مثل هذه الأوقات غاضبة ؟

وتنهدت مسز مارش ، ورفعت يدها الرحيمة إلى رأس چو تسوى شعرها المشعث ، وقالت :

— نعم ، ولكنى تعلمت أن أحبس كلمات الغضب في فمى ، وأسرع بالخروج من الغرفة لأعاتب النفس على ضعفها وخذلانها .
سألها الفتاة :

— أرشدني يا أماه ، كيف أستعين بالهدوء على الغضب ، فالكلمات القاسية تتدفق من فمى على الرغم منى ، وكلما ازداد تدفقها ازدادت مراجل غضبي ثورة وغلياناً ، حتى يعميني الضلال ، فأجد لذة في جرح شعور الآخرين . أريد أن أكون مثلك ، فعلمني ما تعلمته ، وساعدني على بلوغ غايى .

قالت :

— كانت لى أم رحيمة تساعدنى .

فقاطعتها چو بقبلة وقالت :

— مثلما تساعدننا برحمتك وحنانك .

قالت مسز مارش :

— ولكنها ماتت وأنا فى سن مبكرة ، فجعلت أكافح الحياة وحدى ،

وقد منعتنى كبريائى من أن أنشد معونة غيرها . وكان وقتاً عصيباً ، كله

دموع وأحزان ، ولكنى لم أوفق فى تحسين أحوالى رغم جهودى المضنية ثم جاء أبوك ، ومعك الخير والسعد ، فتحسنت مواردى ، وتحسنت معها أخلاقى ، واستطعت أن أكون امرأة طيبة . ولما مضت السنون ، ورزقت بينات أربع ، ضاعت ثروتنا . فعادت إلى أحزاني ، وعز على أن يحرم بناتى متع الحياة ومسراتها .

قالت جو :

— مسكينة يا أماه ، ولكن من الذى أخذ بيدك فى تلك المحنة ؟

قالت :

— أبوك يا جو ، فهو رجل لا ينفد له صبر ولا يعتور إيمانه شك ؛ يعمل ويجهد ويتنظر السعادة صابراً . كان يعينى ويواسينى . ويرينى كيف أتحملى بالفضائل حتى أكون مثلاً تحتديه بناتى ، وكان من السهل على أن أضحي من أجلكن . وأن أقتنى خطواته لأكون عن جدارة واستحقاق خير قدوة لبناتى . ووجدت فى حبكن لى وثقتكن بى أعظم جزاء فى الحياة .

صاحت جو فى تأثر بالغ :

— ليتنى أتحملى بنصف فضائلك يا أماه .

قالت :

— بل يجب أن يكون لك فضائلى وأكثر ، وكل ما أطلبه منك أن

تحذرى العدو الكامن فى صدرك ، حتى لا يسىء إليك ويفسد حياتك

لقد تلقيت اليوم درساً وإنذاراً فاتعظي بما حدث ، وجنّدي قواك في قهر الغضب وفي الانتصار عليه ، قبل أن يوردك موارد التهلكة ، فتقاسين من الألم ما لا قبل لك به .

قالت چو :

— سأحاول يا أماه في إخلاص وعزيمة ، فكوني بجانبى دائماً ، وساعديني على بلوغ غايتي . ولا تتواني عن الأخذ بيدي إذا رأيتني أستسلم للغضب . لقد كنت أرى أباي أحياناً يضع إصبعه على شفتيه . وينظر إليك في جد وعطف ، وكنت أراك إذا ما فعل هذا تزمين شفتيك ، ثم تنصرفين من الغرفة بسرعة ، فهل كانت هذه وسيلة في معونتك على قهر الغضب ؟

قالت :

— نعم ، وكم أنقذتني تلك الإشارة الصغيرة من أخطاء كثيرة . ورأت چو الدموع تترقق في مقلتي أمها ، فخشيت أن تكون قد تحطت الحدود بكلامها ، فقالت بلهفة وندم :

— أكان خطأ مني أن أرتبكما ، وأصارحك بما رأيت ؟ إنما أردت أن أفتح لك صدري ، وأحدثك بنواطري وإحساساتي ، بعد أن وجدت في كنفك راحة نفسية غامرة .

قالت الأم :

— لا بأس عليك ياچو ، وأكثر ما يسعدني يا حبيبتي أن أكون

محط ثقة بناتي ، فأقص عليهن سعادتى وأفراحي .

قالت جو :

— خشيت أن أكون قد آلمتك بحديثى .

قالت الأم :

— لا يا عزيزتى ، ولكن الحديث عن أبيك ، يحرك وحشتى إليه ،
ويذكرنى بأفضاله الكثيرة ، ويحفزنى إلى الإخلاص فى رعاية بناته ،
وحفظهن سعيدات من كل سوء .

قالت جو :

— ومع ذلك ، فقد تركته يذهب إلى الميدان ، ولم تدرنى دمة
فى يوم الوداع . وبقيت إلى اليوم راضية كأن شيئاً لا ينقصك فى الحياة .
قالت :

— لقد وهبت الوطن أعز ما أملك ، وجبست دموعى حتى لا أحزن
والدك يوم السفر ، وأقلعت عن الشكوى قاعة بإرادة الله . لقد أدى
كلانا واجبه . والسعادة تنتظرنا فى النهاية . إنى لا أطلب العون ، لأن الله
فى عونى . ومن كان الله معيناً له ، فلا حاجة به إلى إنسان . إن المتاعب
يابنتى قد بدأت فى حياتكن ، وستزداد يوماً بعد يوم ، فاستعن بالله
على قهرها ، يرعاكن الله ويكأوكن برحمته وعنايته . وكلما ازداد إيمانكن
بالله ، ازداد الله قرباً منكن ، وكفما كن شر الحاجة إلى الناس . إن عطف
المول معين للسعادة لا يغيض ، وينبوع للقوة والسلام لا ينضب ،

فاحفظى قولى هذا عن ظهر قلب ، وتوجهى إليه عز وجل بكل ما فىك من قوة وإيمان . الجئى إليه فى آمالك وأحزانتك ، واستغفره نزواتك وأخطائك ، يستجب لك من عليائه وسمائه .

وأفحمت چو بنصیحة أمها ، فأحاطتها بذراعیها صامتة ، وتوجهت إلى الله فى صلاة خاشعة ، وخرجت منها نقية القلب ، طاهرة النفس . فكما تعلمت فى هذه اللحظة قسوة الندم والألم والیأس ، كذلك تذوقت حلاوة التضحية وجمال السيطرة على النفس . فقد أرشدتها إلى طریق الله ، وأخذت بيدها إلى رحمته التى تشمل كل حزين ضال والى تزيد فى عظمتها وجلالها عن رحمة الآباء والأمهات .

وتعلمت آمى فى فراشها ثم تنهدت ، فنظرت چو إليها نظرة جديدة كلها عطف وحنان ، كأنها تتلهف إلى المبادرة بالتكفير عن زلتها . وقامت إلى أختها تحنو عليها، وتربت شعرها الذهبى الناعم ، ثم تقول لأمها :
- لقد عصيتك أمس ، فلم أصفح عنها ، وتركت شمس النهار الحديد تشرق على قلبى المفعم بالغضب ، ولولا لورى ، كنت فقدتها إلى الأبد ، وشقيت بإثمى العظيم مدى الحياة .

وكان الصغيرة قد سمعت قول أختها ، إذ فتحت عينها ، ومدت ذراعیها ، وافتقر ثغرها عن ابتسامة نفذت إلى صميم قلب چو . ولم تنبس إحداهما بكلمة ، وتعانقتا فى صمت ، ثم محت القبلات آثار الحنة الماضية .



الفصل التاسع

« ميج » تجرب مباهج المجتمع

في أول يوم من شهر أبريل ، وقفت ميج في حجرتها تعد حقيبة السفر ، وأخواتها من حولها يساعدها . قالت تتحدث عن الأطفال الذين تعمل مربية لهم :

— أليس من حسن الحظ أن يصاب أولئك الأولاد بمرض الحصبة في الوقت الحاضر ؟

قالت جو ، وهي تساعد أختها في طي ملابسها :

— أوليس جميلا من آنى موفاآ أن آآآآر وعدها لك ، فآآعوك
لقضاء أسبوعين فى ضيافآها ؟

وكانآ بث تقوم بنصيآها من مساعآة أآآها ، فآآوى الشرائط
الملوآة ، وآضعها فى صندوق أعارآه ميج بهذه المناسبة السعيآة ، قالآ :
— ومن آسن المصاآفاآ أن الجومعاآل آميل .

قالآ آمى وهى آعرز الـبايس فى وساآآها الصآيرة :

— من لى بـآوة أنيقة أراآى فىها كل هذه الملابس الجميآة .

قالآ ميج ، وهى آآيل بصرها فى ملابسها وأآواآ زيناآها :

— كآآ أآآى أن آآهبنّ معى ، ولكن آنى لم آآع سواى ،

فلآآطمنن نفوسكن إلى أنى سوف أآآفظ بكل ذكرياآى ومآاآراآى ،
لأروبا لكن عآآ عوآى ، فهذا أقل ما يجب علىّ ، بعآ ما لآسآه من
عطفكن البالآ . وآسابقكن إلى إعاآى أآمل ملابسكن ومآآناآكن .

سألآها آمى :

— وهل أعاآآك والـآى شياآ من صندوق آآآها المعهود ؟

وكانآ آشير بهذا الكلام إلى صندوق كبير من آآب الصنوبر ،

اعآاآ مسز مارش أن آآآفظ فىه بما آركآه لها أيام الرآاء من آآف
آالية ومآآناآى آميآة ، لآها لبناآها فى الوقت المناسب . وكانآ الأم
قآ فآآ الصنـوق لأول مرة من أآل رآلة ميج ، ولكن شاء سوء
الطالآ أن آكون آمى آارج البياآ فى آلك اللاحظة المثيرة ، فلم آرشياآ

من عطايا أمها .

أجابت ميج :

— أعطتني جورباً حريرياً ، ومروحة منقوشة ، وحزاماً أزرق اللون .
وكنت أحب أن آخذ قطعة الحرير البنفسجية ، ولكنني عدت ففكرتها ،
إذ ليس لدى متسع من الوقت لقصها وحياتها . وأرى أن أقنع بثوبى
المقوى القديم .

وكانت چو تمنى لو استطاعت أن تعطى أختها كل ما تملك ،
ولكن سوء الاستعمال كان قد أفسد ملابسها وأدوات زينتها ، فلم تعد
تصلح للإهداء . قالت :

— سيكون ثوبك جميلاً ، عندما ترتدينه فوق قميصى الحديد ،
وتزينينه بجزم أمى الأنيق ، وكان يسعدنى أن أعيرك سوارى المرجانى ،
ولكنه تهشم منى مع الأسف .

قالت ميج :

— رأيت فى صندوق التحف عقداً من اللؤلؤ ، فلم تشأ والدتى أن
تعطينى إياه ، وقالت إننى ما زلت صغيرة السن ، والزهور الطبيعية أليق
زينة بى ، وقد وعد لورى أن يمدنى بكل ما أحتاج إليه منها .

وعادت تتأمل ملابسها وتقول :

— هذه الريشة تحتاج إلى إصلاح ، وهذا « الطاقم » الرمادى الحديد
ينفع للسير فى الصباح ، والرداء البوبلين للحفلات الصغيرة ، وإن كنت

أعتقد أن نسيجه سميك لا يناسب جو الربيع . آه لو كان الوقت يسمح
بجياكة القطعة البنفسجية !

قالت آمى ، وهى تسرح الطرف فى مجموعة الملابس الأنيقة :
- لايم ، فثوبك الموسلين يصلح للحفلة الكبيرة ، ولونه الأبيض
يكسبك حسناً ملائكياً .
قالت ميج :

- إنه قصير ، وفتحته ضيقة ، ولكنى سأصلحه على كل حال .
وثوبى الأزرق يبدو جميلاً بعد أن قلب وثنى حتى أصبح كالحديد ،
وحقيبتى من طراز عتيق ، وقبعتى ليست كقبعة سالى ، ولكن هذا كله
لا يضايقنى بقدر ما تضايقنى مظلتي الجديدة ، فقد طلبت من والدتى
واحدة سوداء بمقبض أبيض ، فابتاعها صفراء بمقبض أخضر قبيح . إنما
متينة الصنع جيدة النسيج ، ولكن لونها لا يعجبني وأشعر بالحجل
عندما أقارنها بمظلة آنى الحريرية المذهبة .

وتنهدت ميج ، ونظرت إلى مظلتها بعين الرثاء ، فاقترحت چو أن
تغيرها ، ولكن ميج أنكرت هذا الرأى وقالت :

- لا ، لن أغيرها حتى لا أخرج شعور والدتى ، بعد أن تكبدت
عناء كبيراً فى شرائها . واقتصدت فى مصروفاتها ، لتوفر ثمنها . إنها
نزوات سخيفة لا يصح الاستسلام لها ، خصوصاً أنى أجد فى جوربى
الحريرى وقفازى الحديد عزاء كبيراً . كان جميلاً منك يا چو أن تعيرينى

قفازك الحديد لآخذه مع قفازى القديم بعد تنظيفه .

وأحضرت آى كوماً من الشرائط الحريرية البيضاء ، كانت حنة قد كوتها لتوها ، ثم سألت أختها ميج :

— إن آنى موفات تحلى قلنسوة نومها بأشرطة زرقاء وحمراء ، فهل

تفعلين مثلها ؟

قالت چو بجزم :

— لو كنت مكانك ياميج ، مافعلت ذلك ، حتى لا يتجسم

الفارق بين أناقة القلنسوة ، وبساطة ثوب النوم الرخيص .

فقالت ميج بضيق :

— متى يأتى اليوم الذى أستطيع فيه أن أزين قبعاتى بالأشرطة ،

وأحلى ثيابى بالدنتلا الحقيقية ؟

قالت بث فى هدوئها المعهود :

— كنت تتمنين منذ أيام أن يسعدك الحظ بتلبية دعوة آنى موفات !

فقالت ميج :

— صدقت ، ولا يصح أن أخرج من أمل إلى أمل ، ولكنها الطبيعة

البشرية ، فكلما تحقق لنا رجاء ، نطلعنا إلى غيره .

تلفتت ميج حولها ، واستطردت فى غبطة ملحوظة :

— أعتقد أننا انتهينا من إعداد الحقيبة ، ولم يبق غير ثوب السهرة ،

وأفضل أن أتركه لوالدتى تضعه فى الحقيبة بنفسها .

وكان اليوم التالى صحواً والشمس مشرقة ، فغادرت ميج دارها سعيدة إلى حيث تقضى أسبوعين في ضيافة صديقتها آنى موفات ، ولم تكن مسز مارش تميل إلى الموافقة على ذهابها ، خشية أن تعود مارجریت ، بعد زيارة أولئك الأثرياء ، أكثر تدمراً بحالها من أى وقت مضى ، ولكن ميج استعطفها كثيراً . وبالغت في الإلحاح والرجاء ، وضمت صديقتها سالى صوتها إلى صوتها . وتعهدت برعايتها خلال الزيارة ، فلم تجد الأم بدأً من الموافقة . راجية أن تكون دعوة آل موفات خير ترفيه عن ابنها بعد عملها طول السنة .

وكان آل موفات على ثراء عظيم : يعيشون في قصر كبير ، ويرفلون في حلل الخير والأناقة ، فانكشمت ميج في بداية الأمر . ثم لم تلبث أن خبرت حسن أخلاقهم ، وعظيم تواضعهم ، فزال توجسها واندجبت فيهم ، وأمكنا بعد وقت قصير أن تلمس ما وراء مظاهرهم الفاخرة من معدن عادى لا يزيد عن معدن الآخرين في شيء . وكانت مترفة المزاج بطبعها ، فأعجبتها أساليبهم في البذخ ، وسرها أن تعيش مع قوم لا يعرفون من الحياة إلا ركوب العربات الجميأة ، وارتداء الملابس الأنيقة ، وقضاء الليالى في المتع والمسرات ، وكان تأثرها بعشرتهم بالغاً ، فجعلت تقلدهم في تصرفاتهم وأحاديثهم ، فتكوى جدائلها كل يوم ، وتحشو كلامها بالفاظ فرنسية ، وتنحصر مناقشتها في شئون الأزياء وأخبار المسارح ، وكانت تبذل في إتقان هذا التقليد جهوداً عظيمة .

وكلما كانت ترى مزيداً من مظاهر الثراء في بيت موفات ، يزداد حسداً لا ينهم آتى ، ويتضاعف إحساسها بفقرها وحقارة بيتها ، وتزداد ثورتها على الظروف التي توجهها إلى كسب عيشها بالعمل الشاق ، حتى انتهى بها الأمر إلى الشعور بأنها فتاة فقيرة مسكينة ، ظلمتها الأقدار بغير حق . وأحلتها مكانة ما كانت تستحقها أو ترجوها . وهانت أمام شعورها هذا فرحتها بثوبها الحريري ، وجورها الجديد ، وقفازها الجميل ، وأصبحت ترى في تلك المقتنيات . التي كانت تفخر بها قبل وقت قصير ، مظاهر فقر لا تليق بفتاة مثلها .

وكان من حسن حظ ميج أن وقتها لا يتسع لطول التأمل والتفكير ، إذ حرصت مضيفتها آنى على إعداد برنامج حافل لا يترك من اليوم ساعة بغير متعة ونشاط ، فكانت تخرج بميج وسالى إلى المتاجر في الصباح ، ثم تزور معهما الجيرة والأصحاب ، وفي المساء يطوف ثلاثهن بالمتنزهات في عربة موفات الأنيقة ، وفي الليل يذهبن إلى المسرح أودار الأوبرا . وكان لآنى موفات أختان كبيرتان هما بل وكلارا . وكانتا على قسط عظيم من الحسن والأناقة ، وكان رب البيت مثلاً أعلى في الوداعة والسماحة . وقد أعجبا بحمال ميج ، وراق لهما حسنهما الطاهر الوديع ، فأقبلا عليها - كما أقبل بناتهما وضيوفهما - يدللانهما ، ويؤثرانهما بكثير من أوجه المجاملة والتكريم ، فازدادت ميج بذلك غروراً على غرور . وأحست كأنها تعيش في عالم من الأحلام الحلو .

وكان برنامج الدعوة يحوى حفلتين رئيسيتين ! إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة ، فلما حان موعد الأولى ، أخرجت ميج ثوبها المقوى ، فبدأت في عينيها حقيراً تافهاً ، بالقياس إلى ثوب سالى القشيب . وقد أحست لذلك بحرج شديد ، ازدادت وطأته عندما لاحظت كيف تطلع البنات إلى ثوبها ، ثم تبادلن النظرات خلسة . والتهب وجه ميج بحمرة الحجل ، وشعر البنات بما أصابها ، فعملن على إصلاح الخطأ بمزيد من العطف والرعاية ، فسألته سالى أن تسمح لها بتصفيف شعرها ، وتطوعت آنى بربط حزامها ، وانبرت أختاها الكبيرتان بل وكلاهما نظريان محاسن ميج ، وتثنيان على جمال ذراعها وبياض لونها . ولكن هذا العطف كله لم يأت بشمرته المرجوة ، فظلت ميج فيما بينها وبين نفسها ، حزينة واجمة تلعن الفقر والحاجة ، حتى شغلتهما شجونها عن المرح والمتعة ، فانزوت في جانب من البيت صامتة واجمة ، وزميلاتها يتنقلن بين الغرف ضاحكات راضيات . وظلت ميج في حزنها ومرارتها ، حتى أقبلت عليها إحدى الخدم تحمل صندوقاً شفافاً به باقة زهر يانعة ، وعندئذ تصايحت الفتيات معجبات بالهدية ، وقالت آنى موفاً وهي تشم عبير الزهور بلهفة :

— أظنها لأختى بل ، فقد اعتاد خطيبها جورج أن يبعث إليها بزهور ، وإن كانت هذه الباقة أجمل من سابقتها وأعظم .

قالت الخادم ، وهي تقدم الصندوق لميج :

— قال الرسول الذى أحضرها إنها للآنسة ميج مارش ، وأعطاني

هذه الرسالة أرفقها بها .

وكان الخبير مفاجأة ازداد لها البنات سروراً وحماسة فسألنها في نفس

واحد :

— أخبرينا ممن جاءتك الباقة والرسالة ، فلم نكن نعرف أن لك

صديقاً حميماً ، له في اختيار الزهور ذوق سليم .

فقالت ميج في بساطة :

— الخطاب من والدتي والورود من لورى .

وألقت عليها آتى نظرة عجيبة ، تلقتها ميج راضية ، وهي تدس

رسالة أمها في جيبتها ، كأنها طلسم يقيها شر الغرور والحسد والكبرياء

الفارغة ، فقد كانت تجد في كلمات أمها معيناً من الخير والسعادة لا ينضب .

قالت آتى وهي لا تزال تنظر تلك النظرة العجيبة :

— آه . . حقاً ؟ !

وشعرت ميج أنها قد أصبحت محط إعجاب البنات وتقديرهن ،

فاستعادت مرحها وحبورها ، واحتفظت لنفسها بجانب من الزهور ،

ووزعت الباقي على صديقاتها . وكانت في تقديم هديتها مهذبة كريمة ،

فاغبط البنات لذلك ، وامتدحن ظرفها وحسن معاملتها ، وكان من

أثر ما حدث أن تشجعت ميج ، فزال عنها خوفها وحيائها ، وازدادت

ثقتها بنفسها ، فلما جاءت مسز موفات تطمئن على البنات قبل بداية

الحفلة ، طالعها وجه ميج جميلاً مشرقاً سعيداً ، ورأتها مخلوقة تستوقف

النظر بالرغم من ثوبها التقديم البالى .

وكانت متعتها كاملة فى ذلك المساء، فقد رقصت ما شاء لها شبابها أن ترقص ، وغنت ثلاث مرات إجابة لطلب الحاضرين ، وكان كل من بالحفل يعطف عليها ، ويعجب بها : فقد سأل الميجور لنكولن عن « هذه الفتاة النضرة ذات العيون الجميلة » ، وأصر مستر موفات على الرقص معها . لأنها كما اعترف بصراحة « تتحرك فى منتهى المرونة والرشاقة » ، كما قال أحدهم « إن لها صوتاً ممتازاً فى جماله ونعومته » وهكذا أمضت ميج وقتاً سعيداً ، إلا أن شيئاً حدث بعد ذلك عكر عليها صفاء سعادتها . فقد خرجت إلى الحديقة تنتظر صديقاً وعددها بإحضار بعض الثلجات . فسمعت حديثاً من الجانب الآخر من السياج المغطى بالزهور ، قالت المتحدثة الأولى :

— كم عمرها فى رأيك ؟

قال صوت ثان ، عرفت فيه صوت مسز موفات :

— ستة عشر عاماً أو سبعة عشر على أكثر تقدير .

قال الصوت الأول :

— ستكون فرصة عظيمة إذا نجحت فى اقتناصه ، فقد أخبرتنى

سالى أنهم أصدقاء حميمون ، وأن الرجل العجوز شديد الإعجاب بالبنات .

قالت مسز موفات :

— أعتقد أن مسز مارش عرفت كيف تحبك خططها ، ولن

تلبث أن تنجح في أداء دورها ، بالرغم من صغر سن الفتاة ،
وجهلها بما يعدُّ لها . قال صوت ثالث :

— لا أشك في أن الخطاب جاءها منه ، ولكنها كذبت علينا ،
فنسبته إلى أمها ، ولكن احمرار وجهها فضحها . إنها فتاة جميلة ، لولا
ملابسها العتيقة ، لازدادت جمالا على جمال . ما رأيك في أن نعيدها ثوباً
من أثوابنا ترتديه في حفلة الثلاثاء القادم ؟ أتظننها تقبل ذلك ؟

قال الصوت الثانى :

— لأظنها ترفض رغم كبرياتها ، فليس عندها سوى ذلك الثوب
القديم الذى ترتديه ، فإذا تمزق الليلة ، واتنا الفرصة لنعيدها ثوباً لائقاً
محرمًا .

قالت مسر موفات :

— وأرى أن أدعولورنس الشاب إلى الحفلة إكراماً لها ، واتركن الباقى

لحينه .

وفى تلك اللحظة أقبل على ميج الصديق الذى كان قد وعددها
بإحضار بعض المثلجات . فوجددها محتقنة الوجه نائرة النفس . إذ كانت
الفتاة . على سداجتها وبراعتها ، ذات كبرياء وأنفة . فعز عليها أن تسمع
الحديث الجارح . ولم يخف عنها معنى من أدق معانيه . وظلت تفكر
وتفكر فيما قيل عن خطط أمها وقبح ثوبها وكذبها فيما يخص بالرسالة
التي جاءت بها ، فزادها التفكير حزناً على حزن ، حتى أحست برغبة ملحة

في البكاء . ولكنها عرفت كيف تكبت هذه الرغبة وراء ستار من المرح الزائف الذي انخدع به الحاضرون ، فلم يكشفوا شيئاً مما كان يعتمل في نفسها . وعندما انتهت الحفلة ، أسرع ميج إلى غرفة النوم تعالج فيها همومها وحيدة ، وأوت إلى فراشها تبكي وتذرف دمعاً سخياً ، فقد فتح الكلام المرير أمامها أبواباً جديدة تقودها إلى عالم كاه حيرة وشقاء وقلق . وشعرت أن التلميحات أفسدت صداقتها البريئة للورى ، وأكسبت الأخوة بينهما لوناً مبتدلاً رخيصاً ! واهتز إيمانها بعض الاهتزاز بأمرها ، التي قيل إنها تحبك الخطط لتقتنص لها الصبي الثرى ، فضعف هذا كله نغمتها على الفقر ، وبدأت تعتقد أنه أعظم مصيبة تنزل بالإنسان تحت الشمس .

وقضت ميج لياة عصبية ، واستيقظت في الصباح التالي ضيقة الصدر مثقاة الحفنين ، وزادها مضي الوقت حنقاً وغيضاً ، فقد كانت تعرف أنها لا تستطيع الكلام بصراحة مع صديقاتها ، ولا يمكنها بحكم لضيافة أن تعيد الأمور إلى نصابها .

وكان الكسل جاثماً على من في البيت جميعهم ، بعد سهرة اللياة لسابقة ، ولذلك لم ينشط الفتيات إلا ظهراً ، عندما جلسن معاً يقتلن لوقت بالتطريز . ولاحظت ميج من صديقاتها عطفاً مضاعفاً ، ورأتهن نظرن إليها بفضول واهتمام ، وكان بודהا أن تعلم السبب ، ولكنها آثرت لسكوت حتى يأتيها الخبر من تلقاء ذاته . ولم يطل بها الانتظار ، فقد

رفعت الآنسة بل - كبرى بنات آل موفات - رأسها عن تطريزها ،
وقالت لها :

- لقد أرسلنا يا عزيزتي ندعو مسر لورنس ، ورجاؤنا أن يقبل
الدعوة ، فكلنا رغبة في معرفته .

فاحمر وجه ميج . ولكن رغبة ماكرة أغرتها بالإمعان في غيظ
البنات ، فقالت :

- جميل أن تفعلن ذلك ، وإن كنت لا أتوقع مجيئه .

سألها الآنسة بل :

- ولم لا يحضر يا عزيزتي ؟

قالت :

- لأن كبر سنه يمنعه من الحضور .

فصاحت كلارا تقول لها :

- ماذا تقصدين بذلك يا صغيرتي ؟ وكم يبلغ من العمر يا ترى ؟

قالت ميج وهي تنظر إلى تطريزها لتخفي سرورها البالغ :

- ليس أقل من السبعين على ما أعتقد !

فضحكت الآنسة بل ، وقالت :

- يالك من فتاة ماكرة ، لقد أرسلنا ندعو لورنس الشاب ،

لا لورنس العجوز .

قالت ميج :

— ولكنه ليس شاباً ، إنما هو صبي صغير .
 وضحكت في نفسها من النظرات التي تبادلتها الشقيقات الثلاث ،
 للوصف الذي أسبغته على لورى .

قالت لإحداهن :

— أهو في سنك ؟

أجابت ميج :

— بل هو في سن چو تقريباً ، لأننى أبلغ السابعة عشرة من عمرى
 قالت آنى ، وكأنها لا تصدق :

— ألم يكن جميلا منه أن يبعث إليك بالورود ؟

قالت ميج ، وهى تتمنى أن ينتهى الحديث عند هذا الحد :

— لقد تعود أن يهدينا أزهاراً من حديقته الكبيرة ، ومستر لورنس
 العجوز صديق حميم لأمى ، فطبيعى أن نكون نحن الصغار أصدقاء بالمثل
 فتلعب معاً بغير حرج .

فأومأت كلارا برأسها لبل ، وقالت بصوت خافت :

— من الواضح أنها ما زالت طفلة غريبة .

وهزت بل كتفها وقالت :

— وساذجة أيضاً إلى أبعد حد .

ودخلت مسر موقات تدب كالفيل فى ثوبها الحريرى ، وقالت :

— إنى ذاهبة إلى السوق لشراء بعض الأشياء ، فهل من خدمة

أؤديها لكن يا بنات ؟

أجابت سالى :

— شكراً ، ولست أريد شيئاً فعندى الحرير الوردى ليوم الثلاثاء

وبدأت ميج تقول :

— ولا أنا . . .

ولكنها توقفت عن الكلام ، إذ تذكرت أنها تحتاج فى الحقيقة

إلى أشياء كثيرة ، ولكنها لا تستطيع أن تشتريها لفقرها .

سألها سالى :

— ماذا تريدن فى حفلة الثلاثاء القادم ؟

قالت ، وهى تتظاهر بالهدوء :

— فى نيتى أن أرتدى ثوبى الأبيض القديم ، إذا أمكننى أن أصلح

عيوبه بحيث يصبح قابلاً للبس .

قالت سالى ، ولم تكن فتاة حصيفة :

— ولم لا تطلين ثوباً آخر من البيت ؟

وبذلت ميج جهداً كبيراً حتى أمكنها أن تقول :

— لأنى لا أملك ثوباً آخر .

ولم تلاحظ سالى ما أصاب ميج من خجل واضطراب ، فقالت :

— ألا تملكين سوى هذا الثوب فقط ؟ إنى لا أصدق .

وتوقفت عن الكلام ، إذ وقع بصرها على بل تشير إليها محذرة ،

فقال تصلح الخطأ :

— وما فائدة الأثواب الكثيرة إذا كنا لانخرج إلا نادراً ؟ لا تطلبي شيئاً من البيت ، فلدى ثوب حريري أزرق ، ولست في حاجة إليه . فهل ترتدينه يوم الثلاثاء إكراماً لي ؟

قالت ميج :

— أشكرك كل الشكر . ولكني أفضل أن أرتدى ثوبي ، إذا لم يكن في ذلك إحراج لكن فهو مناسب جداً لفتاة في مثل سني .

قالت بل تقنعهما :

— بل دعيني أمتع نفسي برؤيتك في خير الثياب وأجملها ، وستكونين رائعة الحسن بلا شك ، ولن أسمح لأحد أن يراك قبل أن أنتهي من تزيينك كما أشتي ، وعندئذ أدخل بك على الناس ، كما دخلت سندرلا المرقص مع أمها الطيبة .

وكان الرجاء مهذباً لطيفاً ، فلم تقو ميج على الرفض ، وتحرك غرورها فتملكتها رغبة في أن تكون رائعة الحسن أنيقة ، وأنسها رغبتها هذه ما كانت تشعر به من مرارة نحو آل موفات .

وفي مساء الثلاثاء المعهود عكفت بل بمساعدة خادمها الفرنسية ، على تحويل ميج إلى سيدة جميلة ، فتعاونتا معاً على تصفيف شعرها ، وتعطير وجهها وذراعها ، ودهن شفيتها ووجنتها بحمرة خفيفة ، ثم ألبستها بعد ذلك الثوب الأزرق . وكان ضيقاً عند الحصر ، واسعاً عند الصدر ،

حتى استبد الحجل بالفتاة ، وهي تتطلع إلى صورتها المنعكسة أمامها على المرآة . ولم تنس بل أن تحلى معصم صديقتها بالأساور ، وعنقها بالعقود ، وأذنيها بقرط فريد في نوعه ، وثبتت الخادم باقة من الورود الحمراء في صدر ميج ، وألبستها حذاء ذا كعب عال من النوع الذى كانت تشهيه نفسها . وأكملت الزينة بمنديل مزركش ، ومروحة لها مقبض فضى . قالت بل وهي تتأمل ميج راضية :

— أنت دمية رائعة الحسن .

وصاحت الخادم الفرنسية تقول معجبة :

— أليست الآنسة فاتنة جدا ؟

قالت بل ، وهي تقود ميج إلى حيث اجتمع البنات في انتظارها :

— تعالى وابهرين بجمالك .

وسارت ميج تحف بها أذبال ثوبها ، والقرط يلمع في أذنيها ، وكان قلبها يرق سريعا لفرط طربها ، بعد أن حدثتها المرآة بجمالها الباهر . وطرب البنات لمرآها ، وأقبل الأصدقاء بطرون محاسنها ، فسر بل أن تنجح في مهمتها ، فقالت لأختها :

— علميها يا آنى كيف تحمى أذبال ثوبها من حداثها ، وإلا تعثرت في سيرها . وأنت يا كلارا ضعي فراشك الفضية في وسط شعرها ، واشبكي الخصلة المتدليلة منه : واحذرن جميعاً أن تفسدن السحر الذى صنعته بيدي .

ودق الجرس ، فأرسلت مسز موفات تستدعى البنات إلى بهو الحفلة ، فقالت ميج لصديقتها سالى :

— أخاف أن أدخل الحفلة ، وأنا نصف عارية بهذا الشكل .
قالت سالى ، وهى تحاول أن تخفى غيرها :

— قد تغير شكلك تماماً ، وأصبحت جميلة بمعنى الكلمة ، ولن أكون شيئاً مذكوراً بجانبك ، فإن بل ذات ذوق ممتاز ، وأنت فرنسية الطابع . دعى زهورك تهطل ، ولا تكثرى من الالتفات إليها ، وحاذرى أن تتعثرى فى أذيالك .

وعملت ميج بالنصائح فى حذر ، فهبطت السلم فى أمان ، ثم سارت إلى حجرة الجلوس حيث اجتمع آل موفات مع من بكر من الضيوف بالحضور . وكشفت لأول وهلة كم للثياب الأنيقة من سحر فى نفوس بعض الناس ، إذ أقبل عليها المدعوات معجبات ، وأحطنها بالعطف بعد أن تجاهلن وجودها منذ أيام ، واجتمع الشبان حولها وتسابقوا إلى خطب ودها ، ولم يبخلوا بالثناء عليها فى عبارات أعجبتهم رغم سخافتها . وحتى العجائز اللواتى دأبن على النقد ولم تنج واحدة من ألسنتهن ، سألن عن اسمها باهتمام ، وسمعت ميج مسز موفات تقول لإحداهن :

— إنها مارجرىت مارش ابنة ضابط كبير فى الجيش ، ومن أحسن العائلات وأعرقها ، ولكن المال ينقصها ، وهى صديقة حميمة لآل لورنس ، وتدله فى حبها ابني نيد .

وتمت العجوز متعجبة ، وعادت تنظر إلى ميج من خلال عيونها ، تستكمل فحصها الدقيق ، فتذرعت الفتاة بالثبات ، وتظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً من حديث مسز موفات العامر بالادعاءات والأكاذيب . وسارت الأمور على ما ينبغي ، وخيل إلى ميج أنها تتقن أداء دور الفتاة الحسنة ، وقد أتقنته بالفعل ؛ رغم أن خصر الثوب كان يحز في وسطها لشدة ضيقه ، وكعب حذاءها يشتبك بذيولها أحياناً ، وخوفها الدائم من أن يسقط القرط من أذنها ، فتطؤه الأقدام وتهشمه .

ووقفت ميج تداعب مروحتها ، وهي تصغى ضاحكة إلى ملح سخيفة يروها على مسامعها صديق متظرف ، ثم سكنت عن الضحك بغتة ، وغشاها قلق واضطراب ، فقد رأت لورى يقف قبالتها ، وفي نظراته أبلغ معاني الدهشة والاستنكار . ورغم أنه انحنى باسمياً يجيبها ، غير أن لمحة في عينيه الصريحيتين ، بعثت حمرة الحجل في وجنتيها ، وجعلتها تتمنى أن لو كانت ترتدى ثوبها القديم ، وقد ازداد حرجها لما رأت آتى وبل تتغامزان ، وتشيران إليها وصديقها لورى الذى بدا في بزة السهرة أصغر سناً من حقيقته .

وسارت تعبر الحجرة إليه ، وهي تقول في نفسها :

— لن أدع أولئك السخيفات يفسدن صداقتى بلورى ، أو يغيرن بشكوكهن البلهاء شعور الأخوة بيننا .

ثم قالت للورى وهي تصطنع لهجة الفتاة الكبيرة الناضجة :

— إني سعيدة بحضورك ، وكنت أخشى أن تعتذر .

وابتسم لورى في عطف وأجاب دون أن ينظر إليها :

— جئت لإرضاء لحو ، فقد أرادت أن ألبى الدعوة . ، حتى أراك

وأحدثها عنك .

واستبد بها الفضول ، وأرادت أن تعرف رأيه فيها ، فقالت والقلق

مازال يساورها :

— ماذا تنوى أن تقول لها ياترى ؟

أجاب وهو يعبث بقفازه :

— سأقول لها إنني لم أعرفك لأول وهلة ، فأنت تبدين أكبر سناً ،

ولست تشبهين ميج التي أعرفها ، وأشعر بخوف شديد منك .

واستبدت بها رغبة شديدة في أن تنتزع كلمات الإعجاب صريحة

من فمه ، فقالت :

— ألبسني البنات هذه الملابس الجميلة ، ألا تعتقد أن چو ،

إذا رأني بها ، تقف دهشة مأخوذة ؟

قال :

— لست أشك في ذلك .

فسألته :

— ألا يعجبك شكلي ؟

قال بصراحة خشنة :

— لا . . لا يعجبني .

قالت بلهفة :

— ولم لا ؟

فنظر إلى شعرها المجعد ، وكتفها العاريتين ، وثوبها الخليع المزركش ،
نظرة أخرجتها ، وقال في نبرات نخلت من لباقته المعهودة :

— إني لا أحب الغرور والحيلاء .

وكان رده أكثر مما تحتمله من صبي في سنه ، فقالت وهي تنصرف

عنه غاضبة :

— أنت أوقع صبي عرفته في حياتي!

وابتعدت عنه في انفعال شديد ، واختارت من القاعة جانباً هادئاً

تعالج فيه غضبها وحيدة ، واتخذت موقفاً بجوار إحدى النوافذ حتى

يخفف هواء الليل البارد احتقان خديها ، فإذا بالكولونيل لنكولن يمر بها

في صحبة والدته ، وسمعته يقول :

— كنت أود أن أريها لك ، ولكن البنات أفسدن شكلها تماماً ،

وجعلن منها أضحوكة لا تستحق النظر .

وتهدت مبيج ، وقالت في نفسها :

— ليتني رضيت بملابسي القديمة ، فلو أنني ارتديتها ، ما نفر

الناس مني ، وما خرجت من نفسي كل هذا الخجل .

وأسندت جبينها إلى زجاج النافذة البارد ، وأخفت جسدها وراء

الستائر ، غير عابئة برقصة الفالس التي تحبها ، وظلت في مكانها
ساهرة واجمة ، حتى أحست بيد تلمسها . والتفتت مبيح خلفها فرأت
لورى ينظر إليها وعلى وجهه أبلغ أمارات الندم ، قال في انحناءة رشيقية :
- اغفرى لى وقاحتى ، وهيا بنا نرقص الفالس .

وأرادت أن تتظاهر بالغضب ، ولكنها لم تفلاح ، فقالت فى ذلة :
- أخشى أن تضايقتك رفقى .

قال :

- أبدأ فأنى أتوق إلى الرقص ، وأحب أن تكونى غفورة متسامحة .
لست أنكر أن ثوبك لا يعجبني ، ولكنك جميلة رائعة .

ولوح بيده كأن الكلمات لا تسعفه .

فابتسمت مبيح فى استسلام ، وسارت معه إلى الرقص تقول :
- احذر أن تدوس ذيل الثوب ، فقد جشمى متاعب كثيرة ،
وكانت حماقة أن أرتديه .

قال وهو ينظر إلى حذاءها ولا يخفى إعجابه به :

- ارفعى الذبول إلى أعلى ، تلافياً للخطر .

ودخلا الحلبة يرقصان سوياً فى رشاقة وانسجام ، وكان متكافئين
طولا وسنا ، فتبعتهما العيون معجبة ، وهما لاهيان عنهما بحجورهما وسعادتهما ،
فقد شعرا أن المعركة الصغيرة اللى نشبت بينهما دعمت صداقتهما أكثر
من ذى قبل .

قالت ميج عند ما انتهى الرقص ، ووقفت تروح عن نفسها
وتلتقط أنفاسها اللاهثة :

— أريد مكرمة منك يا لورى .

قال :

— اطلبي ما تشائين .

قالت :

— لاتحدثهن فى البيت عن هذا الثوب ، فأخشى ألا يفهمن الأمر
على حقيقته ، وربما أعضب أمى ما فعلت .

قال فى تساؤل واضح :

— إذا لماذا ارتديته ؟

قالت :

— أفضل أن أخبرهن بنفسى ، ولن أتردد عن الاعتراف لوالدتي
بغياوتى وحمائى . فمن الخير أن تترك الأمر لى .

قال :

— أعذك بذلك ، ولكن خبرينى . اذا أقول إذا سئلت .

أجابت :

— قل فقط إننى كنت جميلة سعيدة .

قال :

— سأكتفى بالشرط الأول من الخبر ، أما عن السعادة فليست أرى

علامها عليك .

وكان في نظريته ما جعلها تقول بصوت خفيض :

— لم أكن سعيدة في بداية الأمر ، ولكن السعادة لا تنقصني الآن ، وأرجو ألا تسمى الظن بي ، فما ارتديت الثوب إلا سعياً وراء متعة بريئة ، وقد نلت نصيبي منها واكتفيت .

قال لورى ، وقد انعقد حاجباه الأسودان :

— أرى نداءً موفات يقبل علينا ، فماذا يريد ياترى ؟

وكان واضحاً أنه لا يرحب بقدوم مضيفه الصغير ، ولا يسر

بمضوره في تلك اللحظة . قالت ميج في تراخ أدھش لورى :

— كنت قد وعدته بثلاث رقصات ، وأظنه جاء بذكرني بها ،

ولكن حماسي فترت ولا أشعر برغبة شديدة في الرقص .

وسارت الحفلة في مجراها ، ولورى لا يتحدث إلى ميج ، حتى حان

موعد العشاء، فراها تشرب الشمبانيا مع نداء وقد ضايقه منها أنها تفعل

ذلك ، إذ كان يشعر أنه بمثابة الأخ لبنات مارش ، ومن أوجب واجباته

أن يحسبهن من كل سوء يتعرضن له . ولم يكن يليق بفتاة في سن ميج

أن تشرب الشمبانيا ، فانهز أول فرصة وهمس في أذنها يقول :

— لا تكثري من الشمبانيا ، وإلا أصابك صداع شديد في

الصباح ، وتذكرى أن والدتك لا توافق على مثل هذه التصرفات .

قالت تفتعل ضحكة :

— لست فى هذه الليلة ميج التى تعرفها ، وما أنا إلا دمية تقوم بأعمال طائشة ، وغداً أخلع ثوب خيالاتى وغرورى ، وأستعيد سابق طبيبتى وصلاحتى .
قال :

— لبتك تبدئين من الآن .

ثم سار مبتعداً عنها ، وقد ساءه ما حاق بها .
واقفت ميج خطوات الفتيات الأخريات ، فرقصت وثرثرت وضحكت ، ولما انتهى العشاء عادت إلى حلبة الرقص تطوف بها مع زميلها مسرعة ، فتكاد تسقطه على الأرض لكثرة ما تعثر فى ذيل ثوبها .
وكانت تمايل فى شكل استقبحة لورى ، فأعد لها تأنيباً قاسياً ، ولكن الفرصة لم تواته ، فقد تحاشته الفتاة طوال السهرة ، حتى حان موعد الانصراف ، وأقبل عليها مودعاً ، فقالت وهى تصطنع ابتسامه رغم ما تعانیه من صداع شديد :

— تذكر ما اتفقنا عليه .

قال بلهجة تمثيلية :

— السكوت حتى الموت !!

ثم انصرف عنها مسرعاً .

وأثار حديثها مع لورى فضول آنى موفات ، فسعت إلى معرفة مادار بينهما ، ولكن ميج رغبت عن الحديث لفرط تعبها ، فذهبت إلى فراشها

وهي تشعر كأنها كانت في حلم لم تستمتع به بقدر ما كانت تحب أن تستمتع .

ومضى اليوم التالى وما زالت تعب مرهقة ، وفي يوم السبت عادت إلى بيتها ، بعد أن قضت أسبوعين في ضيافة آل موفات ، وشعرت أنها نالت كفايتها من حياة الدعة والترف .

وفي مساء ذلك اليوم ، جلست ميج إلى أمها وأختها چو ، تقول راضية :

— جميل أن يعود الإنسان إلى هدوء بيته المتواضع ، بعد طول الرياء والتصنع .

وكانت أمها قد لاحظت ما اعترى ابنتها من تغير ، فنظرت إليها بقلق وقالت :

— يسعدنى أن أسمع ذلك ، فقد كنت أخشى أن تعودى إلى بيتك ، أكثر تدمراً بالفقر من ذى قبل .

وروت ميج لأخواتها أخبار مخاطراتها ومسراتها ، وأكدت لهن مرة بعد مرة مبالغ سعادتها وهنأها ، ولكنهما دفيناً كانا يثقل نفسها ، فلما ذهبت أختها الصغيرتان إلى النوم ، جلست ميج تتأمل نيران الموقد شاردة الذهن مهمومة ، حتى دقت الساعة تسعاً ، واقترحت چو أن تأوى إلى غرفتها ، إذ ذاك نهضت ميج عن مقعدها فجأة ، وقبعت على كرسي بث الصغير بجوار قدمي أمها ، وقالت بشجاعة :

— أريد أن أعترف بذنوبي يا أماه .

قالت مسز مارش :

— هذا ما كنت أنتظره يا بنيتي .

قالت چو بصوت خافت :

— أنفضلين أن أترككما وحدكما ؟

قالت ميج :

— لا ، ولا يسيئني أن أتحدث في حضرتك ، فقد تعودت أن

أصارحك بكل شيء ، وما سكتُ عن الكلام إلى الآن إلا خجلاً من

أن أعترف بمبادئ على مسمع من أختي الصغيرتين .

ورغم قلق مسز مارش الواضح ، قالت باسمه :

— كلي آذان صاغية .

قالت :

— ذكرت أنهن أعرنني ثوباً من ثيابهن ، ولكني لم أقل إنهن طلين

وجهي بالمساحيق ، وشددن خصري وجعدن شعري ، حتى صرت

كإحدى عارضات الأزياء ، ولا أشك في أن لوري تألم كثيراً لما فعلت ،

واعتبره خروجاً على دواعي الاحتشام المستحب . وكانت حماقة بالغة ،

ولكني أردت أن أثير الإعجاب ، فجعلت من نفسي أضحوكة الناس .

ونكست ميج رأسها بذلة ، وبدت عليها مظاهر الندم الشديد ،

فلم يطاوع مسز مارش قلبها على تأنيبها . وقالت :

— أهذا كل ما فعلت ؟

قالت في ندم بالغ :

— بل ذهبت إلى أبعد من ذلك : شربت الشمبانيا ، وتمايات في الرقص . وكنت في تصرفاتي مثلاً للرعونة والطيش .

فربتت مسز مارش الخلد المتقد بنيران الحجل ، وقالت :

— ليس هذا كل شيء على ما أعتقد .

قالت ميج :

— هناك أمر آخر سخيف . ولكني أفضل أن أحدثك به . فليس

أبغض إلى نفسي من أن يتقول الناس عن صداقتنا بلورى .

ثم روت لأمها ما قاله آل موفات في الحديقة ، ولاحظت چو

كيف زمت مسز مارش لهذا الحديث شفيتها ، كأنها تستنكر أن تدخل

مثل هذه الأفكار رأس ميج الساذجة . فصاحت جو تقول في ترفع :

— هذا أسخف ما سمعت في حياتي ، وكان واجبك أن تظهرى

نفسك لمن ، وتضعى الأمور في نصابها .

قالت :

— لم أجرؤ على ذلك ، فقد غلبنى الارتباك في بداية الأمر ، ثم

ألجمنى الغضب عن الحركة والكلام ، فلم أفكر حتى في مغادرة مكانى

قالت چو :

— ويل لآنى موفات حين أراها وأسوى معها هذه المهزلة . أيطن هؤلاء

الأغبياء أننا ننصب الشباك حول الصبي الغنى ، ونسعى إلى اقتناصه زوجاً

في الوقت المناسب؟ آه لو سمع لورى بهذه السخافات!!
 وضحكت چو عندما تصورت كم يغضب صديقها إذا حدثته
 بالقصة .

قالت ميج تحذرها :

— لن أصفح عنك إذا حدثته بذلك ، أيصح أن نقول له مثل
 هذا الكلام يا أماه ؟

قالت مسز مارش بجذ :

— إياك أن تعيدى القصة على مسامعه ، وانسها بأسرع ما يمكن .
 وكان خطأ منى أن سمحت لك ياميج بزيارة قوم لا أعرفهم إلا قليلا ،
 وأعتقد أننى ألحقت بك ضرراً بليغاً ، فما كان يجوز أن أبعث بك إلى
 أناس ماديين ، تملأ رءوسهم أفكار نابية ، لست أشك في طيبة قلبهم ،
 ولكن نصيبهم من حسن التربية قليل .

قالت ميج في حرج مما اعترفت به :

— اطمئنى يا أماه ، إن ضرراً لن يصيبنى ، وثقى بأننى لن أذكر
 إلا الخير مما رأيت ، وإنى لأشكرك جزيلاً أن سمحت لى بالذهاب ،
 فقد تمتعت كثيراً ، وتعلمت أيضاً أن القناعة كتر لا يفنى . لقد خرجت
 على تعاليمك ، ولكنى تبينت الحقيقة الآن ، ولن أنخلى عن مشورتك ،
 حتى أصبح قادرة على رعاية نفسى بنفسى . وكنت أسعى إلى الإطراء
 والمديح ، فحدث ما حدث .

قالت :

– كلنا يجب الإطراء يابنيتي ، ولكن لا يصح أن نذهب في السعى إليه إلى حد المبالغة ، فنأق أفعالاً لاتليق بنا . تعلمي أن تطلي من المديح ما تستحقينه فقط . واعلمي على أن تثيري إعجاب الناس بفضلك وحسن أخلاقك .

وجلست مارجريرت تفكر ساهمة ، فوقفت چو تأملها في دهشة وحيرة ، إذ كانت هذه أول مرة ترى فيها وجه أختها الكبرى يحمر بالخجل ، ولم يسبق لها أن سمعتها تتحدث عن الإعجاب والإطراء والشبان بمثل هذه اللهجة ، وأحست چو أن أختها قد كبرت خلال الأسبوعين الماضيين بدرجة ملحوظة ، وأنها بدأت تنزلق بعيداً عنها إلى دنيا جديدة ليس في استطاعتها أن تتبها إليها .

قالت ميج تسأل أمها بحياء :

– أحقاً ماتقوله مسز موفات من أنك تضعين بشأننا خططاً ؟

قالت :

– نعم . . إني أضع خططاً كثيرة ، شأني في ذلك شأن الأمهات جميعهن ، ولكن خططي تختلف قليلاً عما تظنه مسز موفات ، ولست أرى بأساً في مصارحتك بها الآن ، فقد كبرت ياميج وحان الوقت لأن أرشدك إلى ما فيه خيرك حتى لا يقودك رأسك العاطفي الصغير إلى غير الطريق الذي أبتغيه لك ، ولن تجدى أصدق من الأم ناصحاً ومرشداً .

أما أنت يا چو ، فلم يحزن دورك بعد . ولكني أحب أن تصغى إلى خططي وتعاونيني على تنفيذها إذا اقتنعت بفائدتها .
وجلست جوعلى ذراع مقعد أمها ، وقد بدا عليها الاهتمام الشديد ،
وأمسكت مسزمارش بيدي ابنتها وجعلت تنظر بجد في الوجهين
الصغيرين ، قالت :

— أريد أن تكون بناتي جميلات متعلمات طبيبات ، وأحب أن ينان
عطف الناس وحبهم واحترامهم ، وأن يتزوجن خير الزيجات وأكثرها
توفيقاً ، وأن يعشن حياة نافعة سعيدة ليس فيها من أسباب الخوف
إلا قليلا . لست أنكر أن أجمل ما في حياة المرأة أن يسعدها الله بزواج
طيب ، وإني لأرجو أن ينال بناتي هذه النعمة الجزيلة . ولست أرى
حرجاً ياميج في أن تفكر في الزواج ، ونعد له أنفسنا خير إعداد ،
فإذا حان الوقت المناسب ، كنا جديرات بحقوقه وواجباته . ولكني
لا أذهب في طموحي إلى حد الرغبة في أن تتزوجن أغنياء من أجل ما لهم
فحسب ، فالذهب لا يصنع السعادة ، إنما يصنعها الحب والإخلاص ،
وإني أفضل أن أراكما سعيدتين مع زوجين فقيرين عن أن تسكنا قصوراً
خلت من سعادة الحب . لست أشك في أن المال أداة نافعة في الحياة .
ولكنه ليس هدفاً نسمى إليه إنما وسيلة نحقق بها الخير الذي نبتغيه .
فتهدت ميج وقالت :

— ولكن « بل » تعتقد أن الفقيرة لا حظاً لها من الزواج ، ما لم تشق

إليه طريقها بنفسها .

قالت چو في كبرياء :

— أفضل أن أقضي الحياة عانساً عن أن أمتهن نفسي بالسعى إليه .

قالت مسز مارش :

— صدقت يا چو ، فأكرم لك أن تكوني عانساً سعيدة ، من أن

تكوني فتاة مبتذلة تجرى وراء الرجال .

والفتت إلى ميچ تقول :

— لاتقنطى يا بنيتى ، فالفقير لا يقف دون الحب الحقيقي ، وكم من

نساء فقيرات سعدن بالزواج وعشن في سعادة وهناء . دعى هذه الأمور

للزمن ، وابجئى عن السعادة في هذا البيت ، واقنعى بما فيه من هاء ،

حتى يمن الله عليك ببيت آخر يجعلينه بالحب جنة وارفة الظل . ونصيحى

لكما أن تضعا ثقكما في أمكما وأبيكما ، فنحن أخاص الأصدقاء لكما ،

وكل أملنا أن يظل بناتنا فخراً لنا ، سواء تزوجن أم عشن وحيدات .

صاحت الفتاتان تقولان بإخلاص :

— سندكر هذه النصيحة دائماً . . يا أماه .

وقامت مسز مارش تقبلهما وتحيهما تحية المساء .



الفصل العاشر

ندوة الأدباء

عندما حل الربيع واتسعت ساعات النهار لمزيد من اللهو واللعب ،
وجد بنات مارش أن حديقة بيهن تتطلب إعداداً وتنظيماً ، فاختصت
كل فناة منهن بربع منها ، تنسقه وتزرع فيه ما تشاء ، وكانت حنة ،
التي درست أخلاق البنات دراسة وافية اطول عهدهما بالأسرة ، تقول :
- . يمكنني أن أعرف صاحبة كل ربع مما تزرعه .

ولم تكن تجانب الحق في ذلك ، فقد كانت ميول البنات تختلف

بعضها عن بعض كل الاختلاف : فيج تهوى الورد ولا ترضى عنها
 بدبلا ، وچولا تستقر على لون من ألوان النبات ، فتغير في كل فصل
 وتجدد ، وانصبَّ اهتمامها في هذه السنة على زراعة عباد الشمس كى
 تطعم بذوره دجاجتها وكتاكيتها ؛ وكانت بث تفضل الأزهار العبقية ،
 فتجد في حقلها الصغير البازلا أوالربيان والعائق والبنفسج ، وإلى جانب
 ذلك خضراوات تطعم بها عصفورها ؛ أما آى فكانت تميل إلى حشد
 حديقته بمختلف أنواع الأزهار الكبيرة اللافنة للنظر ، ولا تراعى في
 زرعها نظاماً أو تنسيقاً ، فترى حديقته مزدحمة بالزنابق وزهور الصباح
 المتدلية والأبصال المتباينة في ألوانها وأشكالها .

وفي أيام الصحو ، كان النبات يقضين أوقات فراغهن في الحديقة
 أو في التجديف أو في جمع الأزهار البرية من الحقول ، فإذا سقطت
 الأمطار ، اقتصر نشاطهن على أوجه التسلية المنزلية القديم منها والجديد .
 وكانت الجمعيات السرية طابع العهد الذى يعشن فيه ، فاقنيس النبات
 فكرتها في العابهن وألفن جمعية سرية أطلقن عليها « ندوة الأدباء » ،
 وقد ظل نشاط هذه الجمعية مجهولا لبقية أفراد الأسرة عاماً كاملاً ،
 فكن يجتمعن في غرفة السطح مساء الأحد من كل أسبوع ، فيتبعن
 المراسيم التى قررنها مند بداية الأمر ، فتوضع مقاعد ثلاثة حول منضدة
 عليها مصباح وأربع شارات مختلفة الألوان ، كتب على كل منها « ندوة
 الأدباء » ، ويجانب هذه الشارات توضع صحيفة الندوة ، وكن يسميها

« صوت الأدب » ، وكانت چو تقوم بنسخها لجمال خطها . وكل من الأربع تسهم بنصيب في تحريرها .

وفي تمام الساعة السابعة ، يصعد الأخوات إلى مقر الندوة ، فيربطن الشارات حول رؤوسهن ، ويتخذن مقاعدهن في وقار وجلال ، وكانت كل واحدة منهن قد اختارت لنفسها اسم أديب عظيم من أدباء العصر ، وتقمصت شخصيته على قدر الإمكان ، وكانت ميج تلعب دور الرئيس ، فتصدر المائدة ، وتبدأ الاجتماع بقراءة الصحيفة التي امتلأت بالقصص والأخبار والإعلانات والفكاهات والمغامرات البريئة .

وفي أحد هذه الاجتماعات ، جلس الرئيس وقد وضع على عينيه إطار عوينات بلا زجاج . وضرب المائدة بيده إيداناً بالبدء ، ثم وقف متعالياً ينظر شزراً إلى عضو كان يجلس بغير احترام ، ويسند ظهر كرسيه إلى الحائط ، فخجل العضو لساوكة واعتدل في مجلسه ، واتخذ سمة الأدب والاحترام .

وعندما اطمأن الرئيس إلى استتباب النظام ، تناول صحيفة الندوة وشرع يقرأ « صوت الأدب » ، فقال :

صوت الأدب

٢٠ من مايو

تهنئة بمناسبة مرور عام على تأسيس الجريدة .

نجتمع اليوم احتفالاً بصدور العدد الثاني والخمسين من صحيفتنا الغراء ، وقد ارتدينا شاراتنا المقدسة ، وامتلأت قلوبنا نخشوعاً ووقاراً ، ونحمد الله على أننا في صحة كاماة ، وأن فرداً لم ينقص من جماعاتنا الصغيرة ، وأن الفرصة عادت فجمعتنا ، لنرى الوجوه المألوفة ونصافح الأيدي الصديقة .

إننا نحبي الرئيس تحية حارة ملؤها التقدير والاحترام ، ونقدم له فروض الولاء والتبجيل ، وهو يتصدر اجتماعنا ، وقد وضع عويناته على أرنبه أنفه ، ونحمد الله على شفاؤه من البرد الذي ألمّ به ، ونشكره تعالى أن مكنه من أن يقرأ لنا صحيفتنا ، ويتحفنا بالدرر التي تتساقط من فمه ، رغم صوته الخشن المتحرج المبجوح .

لقد مضى بنا عام ونحن متحدون ، نسعد أوقاتنا بالضحك والمزاح والقراءة ، ونبني مستقبلنا بجد واجتهاد ، ونمهد الطريق أمامنا إلى ذروة

الأدب ، فالله ندعو أن يديم نجاحنا ، وأن يكتب الرواج الدائم
لصحيفتنا ، وأن يتمتع ندوة الأدباء بالسعد والهناء . »

١. سنود جراس (چو)

• • •

قصة

الزواج المقنع

قصة من البندقية بقلم الأديب س . بيكويك (ميج)

رسا أمام السلم المرمى ، جندول وراء جندول ، وتوافد المدعوون
والمدعوات في ثيابهم البهيجة الغالية ، حتى غصت بهم أبهاء قصر الكونت
أديلون الفخمة الواسعة . واختلط الأشراف والفرسان والسيدات بالحراس
والفقراء وبائعات الورد ، واشترك الجميع في رقص مرح على أنغام
الموسيقى والغناء ، وفي هذا الجو المرح مضى الحفل التنكري الأنيق .

وانحنى الشاعر اللبق أمام ملكة القصر وقال :

— هل رأيت جلالتك ليدى فيولا هذه الليلة ؟

أجابت الملكة :

— رأيتها وكانت رغم حزنها رائعة الجمال ، وقد أحسنوا اختيار ثوبها ،

فبعد أسبوع تزف إلى الكونت أنطونيو الذي تمقته من صميم قلبها .

قال الشاعر :

— إني أغبطه وأيم الحق ، وهأنذا أراه قادماً في ملابس العرس ،
وعلى وجهه قناع أسود ، فلننتظر حتى يرفع قناعه لنرى كيف ينظر إلى
عروسه التي استعصى عليه قلبها ، وإن كان والدها قد قبل زواجها منه .
وسارت الملكة مع الشاعر إلى حلبة الرقص ، وهمست في أذنه :
— يتحدث الناس بأنها مدطة بحب فنان إنجليزي ، ويقال إن
والدها باغته وهو يحوم عند سلم القصر فطرده شر طردة .

وكان الحفل في معمعانه ، عندما دخل إلى البهو قسيس ، وانتحي
بالفتاة وعريسها غرفة جانبية ، وطلب منهما أن يركعا أمامه استعداداً
لمراسيم الزواج . وساد القوم سكون وهدوء لا يعكروه إلا خريبر المياه
وحفيف الأوراق وهي تتحرك تحت لمسات النسيم العليل في ضوء القمر
الفضي . هتف الكونت أديلون بمدعويه يقول :
— أيها السيدات والسادة ، جمعناكم الليلة بخدعة لطيفة كي تشهدوا
زواج ابنتي من خطيبها الكونت أنطونيو .

والتفت إلى القس يقول :

— سر في مراسيمك أيها الأب الجليل ، فنحن في الانتظار .
والتفت العيون إلى العروسين ، وسرت في القاعة هممة الدهشة
والاستغراب ، عندما ركع الاثنان أمام القس بقناعيهما ، ولم يكن ذلك
مستساغاً ، فثار فضول الناس ، ولكن جلال الموقف منعهم من الكلام .

ولما انتهت مراسم الزواج ، التف القوم حول الكونت يستفسرون ويستوضحونه ، فقال :

— ليس هناك ما يدعو إلى توضيح . فقد رغبت ابنتي فيولا أن تزوج الليلة ، وأن تم المراسيم بهذه الصورة ، فلم أر ما يمنع من تحقيق رغبتها .

والتفت الكونت العجوز إلى العروسين وقال :

— لقد انتهينا من أداء الدور الذي طلبناه ، فاخلعا قناعيكما ، كي أهنيكما وأبارككما .

ولكن العروسين لم يركعا أمام الكونت . إنما تقدم العريس وحده ، ورفع القناع الأسود عن وجهه ، فإذا به الفنان الإنجليزي ، الذي أحبته فيولا وطرده أبوها . وسارت إليه عروسه باسمه راضية ، وأسندت رأسها على صدره الذي التفت فوقه نجمة ذهبية ، هي شعار أشراف الإنجليز .

قال الفنان في صوت أجفل له الحاضرون :

— سيدى اللورد ، قد طردتني من قصرك ، وأبيت أن تزوج ابنتك إلا لمن يعادل الكونت أنطونيو حسباً وثراء ، إن لدى من المال أكداً تشبع أطماعك ، ولا أظنك تبخل بابنتك على سيد أشراف الإنجليز إيرل ديفيرو وديفير ، فهل تقبل ثروتي الطائلة ونسبي الرفيع في مقابل يد ابنتك التي أصبحت زوجتي ؟

وتسمر الكونت في مكانه . ولم ينطق لفرط دهشته بكلمة واحدة ،

فالتفت الشريف الإنجليزي إلى الجمع وقال وعلى فبه بسمة الانتصار :
 - أما أنتم يا أصدقائي الأشراف ، فالله أدعو أن يحقق آمالكم كما
 حقق آمالي ، وأن يسعدكم مثل ما أسعدني الليلة بزواج حبيبتي الجميلة
 في هذا الحفل التنكري .

قصة حياة عنقود عنب

بقلم ت. تويمان . . (بث)

« يحكى أن فلاحاً زرع بذرة صغيرة فى حديقته ، ولم تلبث هذه
 البذرة أن نبتت وأينعت وصارت كرمة كبيرة تتدلى منها عناقيد العنب
 الشهية . وفى صباح يوم من الأيام اختار الفلاح أجمل عناقيده ، فقطفه
 وحمله إلى السوق كى يبيعه ، فاشتراه منه بدال وعرضه فى واجهة متجره .
 ومرت بالمتجر فتاة صغيرة ذات وجه مستدير وأنف قصير ، وكانت
 ترتدى ثوباً أزرق اللون وقبعة بنية ، فلما رأت العنقود بادرت بشرائه لأنها ،
 وحملته إلى البيت حيث قطعته وغلته فى الماء ، ثم عصرت جزءاً منه ،
 وأضافت إلى العصير زبداً وسمناً ، وقدمته للعشاء . أما الباقي فقد خلطته
 بملء كوب من اللبن وبيضتين وأربع ملاعق من السكر ، وأضافت
 إلى الخليط بعض اللوز والبسكوت ، ووضعت فى إناء عميق ، وأدخلته
 الفرن حتى احمر لونه ، وفى اليوم التالى أكلته أسرة أسرة مارش . »

رسالة

بقلم ن. وينكل (آمى)

سيدي رئيس ندوة الأدباء

أكتب إليك بخصوص حديثك عن الذنوب والمذنبين ، فقد كنت تشير بذلك إلى من يدعى وينكل ، فتهمه بإثارة المتاعب في اجتماعات الندوة ، وتهمه بالإهمال في كتابة نصيبه من موضوعات الصحيفة . وكل ما أرجوه من سيدي الرئيس ، أن يصفح عن إهمال هذا العضو ، وأن يأذن له بإرسال قطعة من الأدب الفرنسي ، فإن مشاغله في الدروس والمذاكرة تحول بينه وبين تأليف قطعة مبتكرة . وأعدك يا سيدي بأن يبعث إليك في العدد القادم قطعة ممتازة تستحق الذكر والإعجاب . وختاماً أقدم بالغ . احترامى » .

* * *

ملحوظة من رئيس التحرير

في هذا الخطاب اعتذار كاف من حضرة العضو ، وأنصحه أن يزيد اهتمامه بالمذاكرة حتى لا يخطئ في الهجاء كثيراً .

حادث يؤسف له

« ساد الفزع يوم الجمعة الماضي ، إثر سماعنا صوت ارتطام جسم ثقيل بالأرض في الطابق السفلى من المنزل ، واستبد بنا الهلع عندما تناهى إلى آذاننا صراخ وعويل ، ونزلنا إلى المخزن مسرعين ، فوجدنا رئيسنا المحبوب منبطحاً على الأرض ، والمكان من حوله في فوضى واضطراب ، وأدركنا والأسف يملأ قلوبنا ، أنه كان بسبيل إحضار بعض الأخشاب لأغراض منزلية ، فانزلت قدمه ، وسقط برأسه وكتفيه في حوض الماء ، واصطدم جسمه بصندوق الصابون ، فانقلب فوق شخصه المبجل . ولما أنقذنا الرئيس من سقطته ، كانت ملابسه ممزقة بشكل مخجل ، وليس يجسده ، لحسن الحظ ، سوى عدد وفير من الكدمات ، ولكنها بسبيلها إلى الشفاء .

المحرر »

• • •

أحزان شعبية

« وقع حادث غامض ، اختفت على أثره الصديقة العزيزة مسز سنوبول ، تلك القطة المدللة التي عرفها الأصدقاء والمعجبون مثلاً في

الرشاقة والجمال والأدب . ولا شك أن اختفائها يعتبر خسارة فادحة ،
تئن لها الجماهير حزناً ولوعة .

وقد شوهدت لآخر مرة . تراقب عربة الجزائر ، ومنذ ذلك الحين
لم يظهر لها أثر . ويتجه الظن إلى أن أحدهم رآها ، فأغراه جمالها الفاضح
بسرقها في ضعة وخيانة . ورغم الجهود الشاقة التي بذلناها في البحث
عنها ، فقد مضت الأسابيع ولم نتمكن من العثور عليها ، ولذلك اعتبرناها
مفقودة ، ووضعنا إشارة الحداد على السلة التي كانت تنام فيها ، كما رفعنا
صحن طعامها من مكانه .

ونحن نبكي في الفقيذة العزيزة أجمل التقطط وأوفى الصديقات .

• • •

إعلانات ميبوبة

« تلقى الأدبية الموهوبة الآنسة بلاجيدج محاضرة هامة عن « المرأة
ومركزها في المجتمع » ، وذلك بندوة الأدباء مساء يوم السبت القادم
بعد الاحتفالات المعتادة .

« تعقد اجتماعات أسبوعية في « حلقة المطبخ » لتعليم الطهي ، وترأس
هذه الاجتماعات حنة براون ، والدعوة عامة .

« تجتمع لجنة النظافة في تمام الساعة التاسعة من يوم الأربعاء

القادم ، والإدارة ترجو أن يرتدى الأعضاء ملابسهم الرسمية ، ويحضروا معهم أدوات النظافة .

• تفتتح السيدة بث في الأسبوع القادم معرضاً لأزياء الدمى ، استحضرت له خصيصاً من باريس أحدث الملابس الفرنسية وأجملها ، وتعلن السيدة أنها على أتم الاستعداد لقبول الطلبات .

• يقدم مسرح « بارنفيل » في الأسابيع القادمة مسرحية جديدة اسمها « العبد الإغريقي » أو « كونستانين المنتقم » ، ويسرنا أن نبشرحبي الفنون ، بأن هذه التمثيلية ستكون حدثاً في تاريخ المسرح الأمريكي ، ولم يسبق أن شاهدت الجماهير مثلها ، في روعة التأليف وجمال التمثيل ودقة الإخراج .

• • •

عمرات

• تستطيع ميج أن تناول طعام الإفطار في الموعد المناسب ، إذا اقتصدت قليلاً في إجراءات غسل يديها .

• نرجو من چوأن تطلع عن الصفير بفمها أثناء سيرها في الطرقات العامة .

• يا جېندا لو تذكرت بث أن تعيد إلى آبي فوطتها .

• بودنا أن تقتصد آى فى غرورها وتذمرها ، فهى لا تمتاز بشىء
عن بقية أفراد الأسرة .

• • •

تقرير أسبوعى عن حالة الأعضاء

ميچ - جيلدة
چو - سيئة
بث - سيئة جداً
آى - متوسطة

• • •

وما إن انتهى الرئيس من قراءة الصحيفة ، حتى دوت القاعة بتصفيق
حاد ، فقامت چو تقدم اقتراحاً ، وقالت فى لهجة خطابية برلمانية :
- سيدى الرئيس ، حضرات السادة :

أقترح أن نضم إلى ندوتنا عضواً جديداً . يستحق هذا الشرف
ويقدره ، ولست أشك فى أنه سيكون عوناً لنا على أداء رسالتنا الأدبية
والاجتماعية ، بفضل ما اتصف به من علم وأدب وروح .

إنى أرشح مستر ثيودور لورنس ، وأزكيه عضو شرف فى الندوة ،
وأرجو أن تفضلوا بالموافقة على قبوله .

وبدا على البنات بعض التردد، ثم قامت ميج، واعتلت المنصة وقالت:
 — سنقترح على اقتراح العضو، فن يؤيد انضمام مستر لورنس
 يقول « موافق » .

هتفت چو بأعلى صوتها :

— أوافق .

وتبعها بث تقول بصوت خجل :

— أوافق .

أردفت ميج تقول :

— ومن يعارض الاقتراح يقول « لا أوافق » .

وكانت ميج وآمى من المعارضات، وقامت آمى تشرح رأيها في
 تأنيق شديد وتقول :

— هذه ندوة للسيدات، وأحب أن تظل دائماً هكذا، فالفتيان
 بطبعهم كثيرو الهدر والمشاغبة، وأخشى أن ينضم مستر لورنس
 فيفسدها .

وقالت ميج وهي تعبت بشعرها، شأنها إذا ترددت في أمر من الأمور:
 — أخشى أن يسخر من صحيفتنا، ويهزأ بجهودنا الأدبية .

فوقفت چو مرة أخرى وقالت بحزم :

— سيدى الرئيس .

أعدك وعد رجل شريف ألا يفعل لورى أمراً من هذا، إنه مشغوف

بالكتابة ، وانضمامه إلينا يضيف إلى جهودنا الأدبية لوناً جديداً ، ويمنعنا من الانسياق مع عواطفنا ، ولقد قدم لنا خدمات كثيرة ، فأقل ما يجب علينا أن نرد له الحميل ، فنقبله بالترحيب عضواً في ندوتنا .

وتأثرت بث هذه الخطبة ، فقامت تؤيد رأى چو وتقول بلهجة حاسمة :

— وأنا أضم صوتي إلى صوت العضو المحترم ، وأرى أن نقبل لورى دون تردد ، لا هو وحده ، بل نقبل جده أيضاً إذا شاء أن يشترك معنا . وتكهرب الجو لحديث بث ، وقامت چو من مكانها تصافح أختها مهتة شاكرة ، وقالت :

— مادام لورى صديقنا ، فواجبنا جميعاً أن نوافق على انضمامه .

قال أخواتها في نفس واحد :

— نوافق ، نوافق ، نوافق .

وبين دهشة الجميع وعجبهم ، قامت چو إلى خزانة الملابس القائمة بجانب الحجرة ، وفتحت بابها ، فوقعت أنظار المجتمعات على لورى مجلس فوق زكبية ممتلئة بالمهمات ، وقد احتقن وجهه لفرط رغبته المكبوتة في الضحك .

صاح الفتيات يستنكرن وجوده :

— أيتها الخائنة الشريرة ، كيف تجرؤين على خيانتنا بهذه الصورة ؟ وقامت چو إلى صديقها ، فأخرجته من الخزانة ، وقادته إلى منضد

الاجتماع فى سرور وانتصار ، ثم قدمت له شارة ، فأصبح بذلك عضواً فى الندوة .

وحاولت ميج أن تتظاهر بالغضب ، ولكن ابتسامتها خذلتها ، فاعتلت المنصة ، وقالت بلهجة خطابية :

— إن ثبات أعصابكما أيها الوغدان يدهشنى .

فنهض لورى بأدب بالغ ، وانحنى تحية للرئيس . وقال برشاقة ولباقة :

— سيدى الرئيس ، سيداتى ، آسف جداً ، أقصد سادتى ، يسرنى أن أكون دائماً فى خدمتكم ، وأن أسهم بجهودى فى نجاح ندوتكم .

وصاحت چو تشجعه وتؤيده :

— مرحى . . . مرحى . . .

وأردف لورى يقول للجالسات :

— رئيسى النبيل ، وأصدقائى المخلصين ، شرفتمونى بالصفح عن خدعتى الدنيئة ، وأحب بهذه المناسبة أن أضع الأمور فى نصابها ، فأعترف بأننى وحدى المسئول عن هذه الخدعة ، وليس لحوذنب فيما حدث ، فأنا صاحب الفكرة ، وأنا الذى ألححت عليها حتى اقتنعت بها .

فصاحت چو فى غبطة بما فعلت :



— بل الذنب مشترك بيننا ، وأنا آتية اقترحت إخفاءك في الخزانة .
 وانحنى العضو الجديده للرئيس وقال :

— لا تصدق ، فأنا الوغد الذي رتب الخديعة كلها ، ولكني
 أعاهدكم بشرقي ألا أعود إلى مثل ذلك ، وأعدكم أن أكرس حياتي
 وجهودي في خدمة ندوتكم العتيده .

صاحت چو مفتبطة :

— هكذا يكون الكلام !
 وانحنيت ميج احتراماً للمتكلم ، وقالت آتية تستريده :

— أكمل حديثك ، أكمل حديثك .

قال :

— أحب أن تعلموا جميعاً أنني شاكر لفضلكم ، معترف بجميلكم ، وقد أردت أن أعبر لكم عن بعض ما يجيش في نفسي ، فأعددت في ركن السياج الفاصل بين حديثينا ، صندوقاً للبريد ، كان في يوم من الأيام برجاً للطيور ، ولكني أصلحته ونظمته ، وصنعت له فتحة في أعلاه . تعلق بقفل محكم ، يحتفظ كل طرف منا بمفتاح له . سيكون لهذا الصندوق فوائد عظيمة ، فيه تبادل الرسائل والمخطوطات والكتب واللفافات ، توفيراً للجهد واختصاراً للوقت . وإنى أقدم لحضرة الرئيس أحد مفاتيحه ، وأملى عظيم في أن يتفضل بقبوله .

ووضع لورى على المائدة مفتاحاً صغيراً ، هلل له الحاضرون وصفقوا طويلاً ، فعانى الرئيس مشقة حتى نجح في إعادة النظام إلى الجلسة .

وعاد الرئيس إلى جدول الأعمال ، فدارت المناقشات على أحسن وجه ، وبذل الأعضاء جهوداً مشكورة في أداء واجباتهم كاملة ، يسارت الأعمال في سهولة وانسياب إلى ساعة متأخرة ، ثم رفعت الجلسة تحية العضو الجديد .

ولم يأسف أحد على انضمام لورى إلى الندوة ، فقد أثبت بلباقته ذكائه ومرجه ، أنه عضو منتج لا مثيل له في أية ندوة أخرى ، وأكسب جوده الاجتماعات روحاً جديدة ، وأضافت جهوده الأدبية إلى الصحيفة

مادة غزيرة ، وكانت خطاباته في الندوة مثار إعجاب الأعضاء لمرافقتها وحسن أسلوبها وخلوها من السخافات العاطفية .

أما صندوق البريد فقد نجح في أداء رسالته أعظم نجاح ، وتبدلت عن طريقه أغرب الأشياء وأكثرها تناقضاً : فن قصص جديدة إلى أربطة عنق ملونة ، ومن شعر إلى مخللات ؛ ومن بذور إلى خطابات ؛ ومن كتب موسيقية إلى فطائر شهية ؛ ومن أحذية إلى دعوات وتمنيات ، ومن عتاب رقيق إلى كلاب صغيرة .

وأعجب مستر لورنس العجوز بالفكرة ، فأسهم بدوره فيها ، واختار أن يرسل هداياه إلى البنات عن طريق صندوق البريد ، واتسع استعمال الصندوق حتى شمل الخدم في البيتين ، فكان بستانى القصر يودعه رسائل غرامه بالطاهية حنة ، وقد ضحك أعضاء الندوة كثيراً عندما اكتشفوا سر الخادمين ، ولكن أحداً منهم لم يدر بخلده ، كم سيحمل الصندوق من رسائل الغرام ، في الأعوام القادمة .



الفصل الحادى عشر

تجارب

فى مساء يوم صحو ، عادت ميچ من عملها إلى البيت ، فوجدت أختها چو ترقد على الأريكة بادية التعب مرهقة ، وكانت ميچ بدورها متعبة مجهدة ، فخلعت حذاءها ، واستلقت على مقعدها ، حتى تأتبهما أمى بكوب من عصير الليمون .

قالت ميچ :

— اليوم أول شهر يونية ، وعن قريب يسافر آل كنج إلى المصيف ،

فأستريح من العمل ثلاثة أشهر! كم سأمتنع بها؟

قالت چو :

— لقد سافرت اليوم عمى مارش إلى مصيفها ، وكنت أخشى أن تصحبنى معها ، ولو أنها طلبت إلى أن أرافقها ، ما جرؤت على الرفض ، ولكنها تركتني والحمد لله ، فرحتني من قضاء الصيف معها في تلك المقبرة التي يسمونها پلمفيلد ، وكانت مهمة شاقّة أن أعينها على إعداد حقائبها للسفر ، ولكن فكرة البعد عنها كانت مبهجة مفرحة ، فبدلت جهودى مضاعفة في خدمتها ، ولم أتردد في تلبية أوامرها ، وقمت بكل ما تحتاج إليه في نشاط وسرعة ، حتى خفت في آخر الأمر أن تشعر بأهمية وجودى معها ، فتعود وتصحبنى إلى مصيفها . وعندما رأيتها تجلس في العربة اطمأنت نفسى وهدأت مخاوفى ، ولكن أمراً أزعجنى في اللحظة الأخيرة ، إذ رأيتها فجأة تطل برأسها من نافذة العربة وتقول :

— جوزيفين ، هلا . . .

وخفت أن تقع الكارثة ، فلم أدعها تكمل حديثها ، واخترت أن أستدير بسرعة . وأعدو مبتعدة عنها ، ولم أكف عن العدو حتى بلغت منعطف الطريق وتأكدت من زوال الخطر . قالت بث وهى كذلك قدى چو بحب وحنان :

— مسكينة أنت يا چو ، لقد رأيتك تعودين إلى البيت ، وكأن شبحاً يطاردك .

وجاءت أمى تحمل عصير الليمون ، وأخذت نصيبها منه فارتشفت منه رشفة وقالت :

— العمة مارش « أبلينز » بشرى .

قالت جو بتسامح :

— إن الفتاة تقصد (لإبليس) ، ولكنى أفضل أن أتساهل معها ، فحرارة الجو تغرينى بالإغضاء عن فلتات اللسان .

قالت أمى تغير الموضوع بلباقة :

— ماذا تفعلان فى العطلة ؟

أجابت ميج من أعماق مقعدها الهزاز :

— سوف أسهر كثيراً ، ولا أنام إلا متأخراً ، وكفانى أن كنت آوى إلى فراشى مبكرة طول الشتاء ، وأبذل جهودى فى خدمة غيرى . أريد أن تكون عطلة كاملة ينعم بها قلبى .

قالت جو :

— أنا لا أحب الكسل ، ولذلك أعددت مجموعة كبيرة من الكتب ،

أقرأها على مقعد صنعته بين غصون شجرة التفاح .

فنظرت أمى إلى بث وقالت ، وقد طرأت لها فكرة جديدة :

— ونحن أيضاً فى حاجة إلى عطاة ، فما رأيك أن نترك الدراسة

بعض الوقت ، ونلعب كما يحولنا طول النهار .

قالت بث :

— رأى جميل ، بشرط أن تقبل والدتي ، فأنا في شديد الحاجة إلى
 التمرن على عزف القطع الموسيقية الحديدية ، ثم إن ملابس الدمى تمزقت ،
 وأريد أن أصنع لها ثياباً صيفية جديدة .
 وكانت مسز مارش تجلس في ركن من الغرفة فالتفت إليها
 ميج تقول :

— أتسمحين لنا بعطلة يا أماه ؟

قالت :

— أسمح بأسبوع على سبيل التجربة ، ولنر في ختامه كيف تكون
 الحال ، فكل ما أخشاه أن تضغن ذرعاً بالبطالة ، وتقتنعن قبل مضي
 سبعة أيام بأن البطالة المطلقة لا تقل ثقلاً على النفس من العمل المستمر .
 قالت ميج في حماسة :

— لست أوافقك على رأيك يا أماه ، فالبطالة متعة لا تعوض .
 ورفعت چو كوب الليمون عالياً ، وقالت :
 — أقترح أن نشرب نخب اللهو والراحة .

وشرب جميعهن في حبور ، وبدأن لفورهن تجربة الراحة الدائمة ،
 فقضين بقية اليوم بلا عمل . وفي الصباح التالي ، لم تغادر ميج غرفتها قبل
 العاشرة ، وعندما هبطت إلى قاعة الطعام ، تناولن إفطارها ، لم تجد فيها
 أحداً من أفراد الأسرة ، فانقبضت شهوتها ولم تصب من الأكل إلا قليلاً .
 وساءها بعد ذلك أن أواني الأزهار خالية من الورد التي درجت على

الاهتمام بها فيما مضى ، وكانت الغرف في فوضى واضطراب ، فالمقاعد غير منتظمة في أماكنها ، والكتب مبعثرة على الأرض ، والأثرية عالقة بالأرفف والمناضد . ولم يكن بالبيت كله مكان نظيف يستطيع الإنسان أن يأوى إليه مرتاحاً ، سوى الركن الذي اعتادت مسرمارش أن تعنى به ، وتجلس فيه ، ولكن ميج لم تقل شيئاً ، واختارت أن تستلقي على الأريكة في كسل ، وقد انشغل ذهنها بشباب الصيف الجديدة ، التي تريد أن تتبناها .

وقضت جو ساعات النهار مع لورى عند النهر ، وفي المساء جلست تقرأ بين أغصان شجرة التفاح . وأقبلت بث على خزانتها ، فأخرجت منها دماها المشوهة ، ولكنها لم تلبث أن شممت اللعاب بعد قليل ، فتركت الدمى على الأرض مبعثرة ، وذهبت إلى المعزف تتسلى بموسيقاها ، وقد اطمأنت نفسها إلى أنها غير ملزمة بغسل صحون الطعام كما اعتادت أن تفعل كل يوم .

أما أمى فقد ارتدت ثوباً أبيض اللون جميلاً ، ونسقت شعرها تنسيقاً أنيقاً ، ثم جلست في جانب من الحديقة ترسم بعض الأزهار ، وأملها كله ينحصر في أن يراها العابرون في الطريق ، فيأخذهم الإعجاب بالفنانة الصغيرة ، ولكن أحداً لم يرها مع الأسف ، فتركت الرسم وخرجت من البيت إلى نزهة قصيرة ، وما لبث المطر أن فاجأها غزيراً ، فأسرعت بالعودة وملابسها الأنيقة تقطر ماء .

وبعد تناول الشاي ، اجتمع البنات في غرفة الجلوس يتحدثن في حياتهن الجديدة ، فأجمع الرأي بينهن على أنها حياة ممثلة بمعنى الكلمة ، وإن كانت ساعات النهار طالت أكثر مما يجب . وأرادت ميج أن ترفه عن نفسها ، فخرجت إلى السوق ، وعادت بقطعة من المسلمين ابتاعها لتصنع منها ثوباً ، فلم تكد تقصها ، إلا واكتشفت أنها غير قابلة للغسل ، فأغضبها ذلك وتركها جانباً . ولم تجد جو تسليه أخرى تشغل بها وقتها بعد أن سلخت الشمس أنفها لطول ما جذفت في النهر ، وأصابت القراءة رأسها بصداع حاد ، فقنعت بالجلوس ساكنة لا تجد ما يشغلها أو يسليها . ولاقت بث عناء في تمرنها على عزف القطع الموسيقية الجديدة ، وضايقتها الفوضى المنتشرة في خزانها ، فجلست هي الأخرى صامئة ، لا تعرف ماذا تفعل بنفسها . أما أمي فقد أحزنها ما أصاب ثوبها الأبيض الجميل ، وتحيرت فيما ستلبسه في حفلة كيتي براون ، بعد أن أفسدت الأمطار الرداء الجيد الوحيد الذي تملكه ، وانتهى بها الأمر إلى الحزن والكمد . ورغم كل هذه المضايقات الصغيرة ، أكد البنات لأمه أن التجربة تبشر بنحور عميم ، فابتسمت لهن ولم تقل شيئاً ، وتعاونت هي وحنة على أداء الأعمال المنزلية التي تركها بناتها ، حتى يحتفظ البيت برونقه ونظامه .

ولم يكن أحد يتوقع أن تتطور الأمور بهذه السرعة بعد ذلك ، ولكن هذا ما حدث بالفعل ، فقد زادت الأيام طولاً ، وانقلب الجو على غير العادة ، فتغيرت أمزجة البنات بالمثل ، واستبدت بهن حيرة

لا يعرفن لها سبباً ، وتسلسل الشيطان إلى جماعتهن ، ووجد مرتعاً خصيباً في أذهانهن الفارغة وأيديهن التافهة . وبدأت المحن يوم أخرجت ميج بعض أثوابها القديمة تجربها ، ولما وجدت فيها بعض العيوب ، فكرت في أن تصلحها ، فتغير شكل الأثواب حتى تصبح شبيهة بثياب آل موفات ، ولكنها لم تفلح في تحقيق هذه الرغبة ، ونجرت من التجربة وقد أفسدت ثيابها . وأنهكت القراءة جو فتركها ، ولم تجد ما تشغل به وقتها ، فثارت فيها روح المشاجرة ، وتشاجرت مع لورى الطيب القلب وخاصمته ، وكانت بث تنسى أحياناً أنها في عطلة ، فتعود إلى عملها المنزلى ، ثم لا تلبث أن تتذكر ، فهجر العمل إلى دماها ، ولكن التجربة أضرت بهدوئها . فتشاجرت مع دماها ، وأنبهت لأول مرة تأنيباً شديداً . أما أمى ، فكانت أشقاها حالاً ، فقد كان معين تسليتها محدوداً بحكم سنها ، فاحتارت فيما تفعله بنفسها ، وأثقلت عليها مواهبها التي تعتر بها ، فزادتها ضيقاً على ضيق ، ولم تكن تحب الدمى ، وتعتبر القصص الخرافية تسلية الأطفال ، ولم يكن في استطاعتها أن تقضى اليوم كله في الرسم ، وفقدت حفلات الشاي والنزهات بهجتها ، قالت تحدث نفسها :

— لست أرى سعادة في مثل هذه الحياة ، فياليتني كنت أملك بيتاً كبيراً كله بنات ظريقات ، أو كان باستطاعتي أن أسافر إلى المصيف أفضى فيه عطلة مبهجة .

وسكت البنات على ما أصابهن من هذه التجربة ، ولكن ما إن

أقبل مساء الجمعة ، حتى كنّ جميعاً مبتهجات بانتهاء الأسبوع الممل .
وأرادت مسز مارش أن تزيد الأثر عمقاً في نفوسهن ، وكانت محبة
للنكتة ، فاستقر رأياها أن تحتم التجربة ختاماً حاسماً ، ولذلك أذنت
للطاهية حنة بيوم عطلة ، وتركت بناتها يفعلن ما يشأن .

وفي صباح السبت ، لم يجد البنات ناراً موقدة في المطبخ ، ولا إفطاراً
على المائدة ، وكذلك لم يجدن أمهن في مكانها المعهود من البيت .
وتلفتن جوحولها في اشمئزاز وقالت :

— اللهم رحمتك ، ماذا حدث لهذا البيت ؟ !

وأسرعت ميج إلى اللور العلوى ثم نزلت وقد ارتسمت عليها أمارات
الراحة المقرونة ببعض الحجل ، قالت :

— وجدت والدتي في فراشها ، وقد رأت أن تلازم غرفتها طول اليوم ،
فعلينا أن نعني بأنفسنا . إنه أمر عجيب حقاً ، فعهدى بها نشيطة
متوثبة ، ولكنها تقول إن الأسبوع الماضي كان مرهقاً لها ، ومن حقها
أن تنال بعض الراحة .

فقالت جو في لهفة :

— إنى أرحب بذلك ، فقد ضاقت نفسي بالراحة ، وأريد أن
أفعل شيئاً .

وعدن إلى العمل فوجدن فيه تسلية وترفيهاً ، وما إن اندمجن فيه حتى
تبين لهن صدق حنة ، التي كانت تقول لهن دائماً ؛ إن العمل المنزلي

ليس مجرد مزحة أو لعبة . وكان الطعام موفوراً في خزانة المطبخ ، فقامت ميج وچو بإعداد وجبة الإفطار ، وتعهدت بث وآمي بإعداد المائدة ، وهما تعجبان لماذا يشكو الخدم من صعوبة عملهم .

قالت ميج وهي تقف أمام إبريق الشاي :

— سأحمل إلى والدتي قسطاً من الشاي ، بالرغم من أنها أبدت رغبتها

في خدمة نفسها بنفسها .

وأحضرت الصينية ، وأعدتها لوالدتها خير إعداد ، وحملت إليها في الطابق الأعلى ، وبالرغم من أن الشاي كان مر الطعم لكثرة ما غلى على النار ، والبيض يفوح برائحة الحرق ، والكعك يلمع لازدياد الكربونات فيه . ورغم ذلك كله ، تقبلت مسز مارش إفطارها راضية شاكرة ، ثم ضحكت كثيراً عند ما انصرفت ابنتها من الغرفة ، وقالت تحدث نفسها :

— يا للنفوس الطيبة ! سيلاقين اليوم صعباً كثيرة ، وستجشمن

مشقات لا عداد لها ، ولكنه درس يفيدهن .

وأزاحت إفطارها جانباً ، واستعاضت عنه بقطعة من اللحم كانت قد أعدتها من قبل لمثل هذا الوقت ، فكانت لحة طيبة تدل على فرط رغبتها في المحافظة على شعور بناتها .

وكررت الشكاوى في الدور الأرضي ، وتعددت الغلطات والأخطاء ،

مما أثار أحزان ميج . التي كانت تلعب دور كبير الطهارة ، قالت

جو تخفف عنها :

— لا بأس عليك ياميج : فسوف أقوم بالأعباء كلها في وجبة الغداء ، وما عليك إلا أن تكوني السيدة الآمرة الناهية ، فليست أرى داعياً لأن تلوثي يديك مرة أخرى .

وقبلت مارجریت هذا العرض السخي مسرورة ، ثم انسحبت إلى حجرة الجلوس التي تسودها الفوضى ، فرتبتها بأن أخفت الأشياء المتناثرة على الأرض تحت الأريكة ، وأسدت الستائر ، حتى لا ترى العيون الغبار العالق بالموائد والرفوف . وندمت جو على ما فعلته بصديقها لورى ، وأرادت أن تمحو أثر الإساءة من نفسه ، فأرسلت إليه تدعوه إلى الغداء ، الذي سوف تطهيه بيديها .

وقالت ميج عندما بلغها الخبر باندفاع أختها في الكرم :

— كان الأفضل ، قبل أن تدعى ضيوفاً للغداء ، أن تنتظري حتى

تسهي من الطهي وتطمئني .

قالت :

— لا عليك ، فقد أعددت للأمر عذته ، وقصرت الغداء على اللحم

المفروم والبطاطس ، بالإضافة إلى بعض المحار والهليون والسلطة ، وليست أعرف كيف تصنع السلطة ، ولكني سأجدها في كتاب الطهي ، ثم نحلي بالفراولة ، ولا بأس من القهوة ، ليكون الغداء من أول طراز .

قالت ميج :

— بالله لا توقعي نفسك في ورطات كثيرة ، ونصيحتي أن تكنتي بصنع بعض الفطائر ، وإلا أخرجلتنا أمام لوري ، إني أنفض يدي من هذه الدعوة ، وما دمت قد دعوته ، فتولي الأمر بنفسك .

قالت چو ، وقد آلمها حديث أختها :

— لست أطلب منك سوى أن تساعديني في عمل حاوي الفراولة ، وتمديني بالنصح إذا تعقدت الأمور .

قالت ميج ، في تواضع ربة البيت الماهرة :

— لن أتأخر عن معونتك ، ولكني لا أعرف كثيراً ، ولا أتقن سوى الخبز وبعض المأكولات البسيطة ، ويحسن أن تستأذني والدتي قبل أن تشري شيئاً .

قالت چو ، وقد ضاقت ذرعاً بنصائح أختها :

— لست بلهاء إلى هذا الحد ، فاطمئني .

ثم صعدت تستأذن والدتها التي قالت :

— اشترى ما تريدين ، ولا تعكري هدوئي ، فأنا اليوم في عطلة ، وسأتناول غدائي في الخارج ، ثم أتسلى بالقراءة وزيارة بعض الصديقات . ودهشت چو لهذا الكلام كل الدهشة ، فقد كان عهدها بأمرها نشيطة مجدة ، لا تنى عن العمل والجهاد ، فلما رأتها متكاسلة بهذه الصورة أصابها دهشة ، واعتبرت الأمر ظاهرة لا تقل عجباً عن كسوف الشمس أو الزلازل .

وقالت تحدث نفسها وهي تهبط السلم :

— الأحوال كلها مختلفة ، وها هي ذى بث تبكى ، فلا بد أن
حادثاً أصاب الأسرة ، والله لأؤدبن آتى إذا كانت السبب فى بكاء أختها .
ونزلت چو نائرة غاضبة ، فوجدت بث تبكى عصفورها الذى رقد
ميتاً فى قفصه ، وقد تقلصت أصابعه الصغيرة وارتفعت إلى أعلى كأنه
يتوسل فى طلب الطعام .

وجعلت بث تبكى طيرها ، وهي تهزه بيدها كأنها تريد أن ترد
إليه الحياة . قالت :

— إنها غلظتى ، فقد نسيت أن أضع له طعامه وشرابه ، آه
ياعصفورى الجميل ، لن أغفر لنفسى قسوتها عليك .
وفحصت چو عيني العصفور ، واستمعت إلى ضربات قلبه ،
فلما تأكدت من موته ، أعدت له نعشاً من صندوق صغير .

وقالت آتى تبعث الأمل فى صدر أختها :

— ضعيه فى الفرن ، فربما عادت إليه الحياة إذا أصابه الدفء .

قالت بث ، وهي ماتزال تبكى وتنوح :

— لقد مات جوعاً ، ولن يعيده إلى الحياة شواؤه فى الفرن . سأحضر
له قبراً أدفنه فيه ، ولن آتى بعصفور غيره ، فكفانى ما فعلت بهذا
المسكين .

فقالت چو فى جد واهتمام :

— لا تنوحى يا بث ، إنه أمر محزن . كان هذا الأسبوع عامراً بالشئون والشجون ، ولعل عصفورك نال أسوأ قسط من تجاربنا . لقيه بالأكفان ، وضعيه فى الصندوق ، وبمجرد أن انتهى من وليمة الغداء ، ندفنه فى احتفال مهيب ، ونسير جميعاً إلى القبر وراءه .

وتركت بث فى رعاية أخواتها الأخريات ، وذهبت إلى المطبخ فوجدته فى فوضى واضطراب ، ولكن ذلك لم يثن من عزم چو ، فوضعت المرولة على ثوبها ، وبدأت تغسل الأواني والصحون ، ولم تنته منها حتى كشفت أن نيران الموقد سحمت ، فقالت بضيق شديد ، وهى تنفخ باب الموقد وتدخل رأسها فيه تفحص الأخشاب به :

— أمر جميل !

وأشعلت الموقد من جديد ، ووضعت عليه آنية مليئة بالماء ، وتركتها لتغلى ، حتى تذهب إلى السوق وتعود . وسارت فى الطريق ، فرد إليها السير بعض هدوئها المفقود ، وطافت بالحوانيت تشتري منها أرخص البضائع ، ثم رجعت إلى البيت تحمل محار صغير الحجم جدًّا ، وهليوناً شائخاً ، وعلبتين من الفراولة الحامضة . وعكفت جو على تنظيف الأواني ، ثم أخذت أهبثها لطهى وجبة الغداء ، وكانت ميج قد أعدت عمجينة الخبز فى الصباح ، وتركتها تخمر بجوار المدفأة ، ثم نسيت أمرها فى غمرة انشغالها بمسامرة صديقها سالى ، التى جاءت لزيارتها . وفجأة انفتح الباب بشدة ، ودخلت چو محمرة الوجه مغبرة الشعر

بالدقيق ، وقالت بلهجة لاذعة :

— ارتفع العجين وسال من آنيته على الأرض ، أفلا يكفيك كل هذا اختاراً ؟

وضحكت سالى ، ولكن ميج رفعت حاجبها تتعجب من أمر أختها ، التى سبق أن تعهدت بإعداد وجبة الغداء دون معونتها ، فارتدت چو على أعقابها أمام هذه النظرة ، وعادت إلى المطبخ تعالج وحدها كل شئون الأكل . وخرجت مسر مارش لقضاء حاجة لها ، بعد أن استرقت نظرة إلى ما يدور فى البيت ، وهمت ببعض عبارات العزاء لبث التى كانت مشغولة بقص أكفان عصفورها .

وكان وجود الأم فى البيت رغم اعتكافها بغرفتها ، يطمئن البنات ويقوى عزائمهن ، فلما رأيتها تخرج ، تملكهن شعور بالعجز والقلق ، واشتدت بهن المحنة . عندما جاءت مس كروكر ، جارتهم العجوز ، وطلبت أن يؤذن لها بتناول الغداء معهن . وكانت مس كروكر هذه عانساً نحيفة القد ، لها أنف معقوف ، ونظرات متطفلة ترى بها ما يخصها وما لا يخصها ، ثم تطوف بأهل الحى تتحدث بما رآته . وكان البنات يكرهنها ، ولا يرتحن إلى صحبتها ، ولكنهن تعلمن عن أمهن أن يحترمنها ويرحبن بها لإكراماً لفقرها وحاجتها . ولم نجد ميج مناصاً من تحيتها ، فقامت تصافحها ، وقدمت لها مقعداً مريحاً ، ثم جلست بجوارها تصغى صامته لثرثرة العجوز . وأحاديث تطفلها .

ومضى الصباح في جهاد بالغ لم يؤت ثمرته المرجوة ، فقد جاء طعام الغداء أضحوكة خالدة : فإن چو أرادت أن تعتمد على نفسها بقدر الإمكان ، ولا تطلب العون أكثر مما يجب ، فكانت النتيجة أن سلت الهليون ساعة كاملة ، لتجد بعدها أن رعوسه قد تفتت ، وما زالت سيقانه صلبة مليفة . وشغلها أمره عن العناية بأمر البطاطس ، فقررت الاستغناء عنه في وجبة الغداء ، واحترق الخبز في الفرن حتى اسود لونه ، واستعصى عليها تنظيم السلاطة ، واختلطت موادها اختلاطاً قبيحاً أقنعها بوجود الاستغناء عن هذا الصحن أيضاً . واستغلق عليها أمر المحار ، ولكنها لم تشأ أن تستسلم للعجز ، فعكفت عليه تعالج فتح أصدافه ، إلى أن أمكنها أن تستخلص منه لحمًا قليلا ، بدا في وسط أوراق الخس ، التي تزين الصحن ، تافهاً هزيبلا . أما الفراولة فقد تعجنت ، وفاحت رائحتها الحامضة ، فثار غضب چو على البائع الذي خدعها ، فوضع لها الفاكهة الفاسدة في قاع العلبه ، وغطاها ببعض الحبات الطازجة .

ومضى على موعد الغداء ساعة ونصف ساعة والطعام لم يعد بعد ، ثم دق الجرس أخيراً ، ووقفت چو ترقب الوليمة تعبئة منهكة ، وقد استبد بها الحجل أن يكون الطعام بهذه الصورة المحزنة في حضرة لورى الذي اعتاد أن يتناول أطيب المأكولات ، وفي وجود مس كروكر ذات اللسان اللاذع والعين المتطفلة ، قالت تحدث نفسها :

— ليكن ما يكون ، وإذا لم يعجبهم طهي ، فلديهم اللحم المفروم

والخبز المقدد والزبد الطازج يشبعون به بطونهم ، ولكن الذى يغىظنى حقاً أن تذهب جهودى ، فى هذا الصباح هباء .

واشدد الحجل بچو ، وتمنت لو انشقت الأرض فابتلعها ، وهى ترى الصحن تتوالى على المائدة ، فما إن يتذوق الجالسون ما فيها ، حتى يتركه جانباً ، فتضحك آمى ، ويتورد وجه ميج ، وتزم مس كر وكر شفتها اشمئزاً ! أما لورى ، فكان يتحدث بنشاط ، ويروى القصص والفكاهات ، وغرضه بذلك أن يزيل التوتر السائد ، ويكسب الوليمة لوناً من المرح والبهجة .

وكان فخر چو الوحيد فى تلك الوليمة الحاتبة ، صحن الفراولة الذى رشته بالسكر الناعم وغطته بالقشدة المخفوقة ، فأشرق وجهها قليلا عندما وضع الصحن على المائدة . وأقبل عليه الحاضرون كل يأخذ نصيبه منه ، وكانت مس كر وكر أول من تذوق الحلوى ، فما إن وضعت فى فمها جزءاً منها ، حتى انقلبت سحنها ، وأسرعت تشرب جرعة من الماء . والتفت چو إلى لورى ، فرأته يتناول نصيبه فى شجاعة ورجولة ، وإن كان التواء شفتيه قد دلها على مبلغ ما يعاينيه من ألم يحاول أن يخفيه . وأرادت أن تقرأ فى عينيه سر ما أصابه ، ولكنه اختار أن يتهرب من مواجهتها ، فأطرق برأسه إلى صحنه ، وثبت أنظاره فى الحلوى . وكانت آمى مشغوفة بهذا اللون من الطعام ، فاغرقت منه نصيباً كبيراً ، لم تكده تتذوقه ، حتى بان الانزعاج الشديد على وجهها ، فأخفت فيها بالفوطة ، وخرجت من الغرفة جرياً .

صاحت چو في حيرة وعجب :

— ماذا دهاكم جميعاً ؟ !

أجابت ميج بجزن :

— لقد وضعت ملحاً بدل السكر ، والقشدة مع الأسف حامضة .
وتأوهت چو في أسى بالغ ، وقد تذكرت أنها ، في لطفها على إعداد
الفراولة ، نسيت أن تضع القشدة على الثلج ولم تنتبه إلى وجود صندوق
الملح بجوار صندوق السكر ، فأخذت حاجتها من الأول دون الأخير ،
واحمر وجهها خجلاً ، واستبدت بها رغبة شديدة في البكاء ، ولكن
نظراتها تلاقى مع نظرات لورى ، وطلعتها عيناه العامرتان بالمرح ،
فانكشف لها من المأساة جانبها المضحك ، فانفجرت في عاصفة من
الضحك ، حتى سالت الدموع على خديها ، وسرت العدوى إلى الحاضرين ،
فضحكوا جميعهم ، حتى مس كروكر الناقدة المتزمته ، وهكذا انتهت
الوليمة في سرور ، وقنع أهل البيت وضيوهم بالخبز والزيتون والزبد .

ونهبست مس كروكر تستأذن في الانصراف ، استعداداً لنشر
الخبر بين أهل الحى ، فودعتها چو إلى الباب ، ثم عادت تقول :
— لا قبل لى بتنظيف المائدة الآن ، فهيا بنا نحتفل بدفن
العصفور .

وتمت مراسم الدفن كاملة إكراماً لبث ، فحفر لورى للعصفور
قبراً بين ورود الحديقة وأشجارها ، وثوى جثمان الطير فيه ، بين بكاء

صاحبه ونحيبها ، ثم نثر عليه المشيعون زهور البنفسج ، ووضعوا على القبر قائماً كتب فيه :

هنا يرقد عصفور آل مارش

مات في اليوم السابع من شهر يونية

أحبه أصحابه وحزنوا عليه

وسوف تبقى ذكراه في قلوبهم خالدة

ولما انتهى حفل الجنازة ، أوت بث إلى حجرتها تغالب أحزانها على عصفورها ، ولكن الوقت لم يتسع لمزيد من الحزن ، فقد حل المساء ، وأن الأوان لإعداد الفراش ، فنهضت إلى عملها تفرغ همومها في ضرب الوسائد وشد الأغشية وإعادة الأشياء إلى مواضعها . وتعاونت ميج مع چو على تنظيف المائدة ، وغسل الصحون ، فاستغرق العمل منهما ساعات المساء كلها ، وخلفهما تعبتيْن مجهدتين ، لا قبل لهما بطهي طعام للعشاء ، فقنعنا بتناول الحبز والشاي . وكانت آمی في حالة سيئة إثر ما تناولته من قشدة حامضة ، فدعاها لورى إلى نزهة خلوية تخفف عنها آلام بطنها ومتاعب يومها . وعادت مسز مارش فوجدت بناتها الثلاث الكبيرات يعملن في البيت باجتهد ، وأقنعها نظرة واحدة إلى الخزانة المنظمة ، بأن تجربتها قد نجحت كل النجاح ، وأنت بأطيب ثمراتها .

ولم ينعم الفتيات بفرصة للراحة ، إذ أقبل على البيت بعض الزائرين ، فاستدعى الأمر مزيداً من العمل والاستعداد ، فخرجن إلى السوق ،

وأعددن الشاي ، وعكفن بعد ذلك على حياكة قطعة مستعجلة كانت العطلة قد شغلتهن عن إتمامها . وعندما حل الغسق ، كان البنات يتوافدن على الشرفة ، حيث ترهو براعم الصيف بجمالها ، فيرتمين على مقاعدهن تحت وطأة التعب والعناء .

قالت چو تبدأ الحديث :

— ياله من يوم عصيب !

قالت ميج :

— كان في الحقيقة يوماً عصيباً ، ولكنه انقضى سريعاً .

وأضافت بث :

— وخرج البيت على ما اعتدنا عليه .

ونظرت آحى إلى قفص عصفورها الخالي ، وقالت بجزن :

— وهل يكون البيت على ما تعودنا ، وليس به والدتي وعصفوري .

وأقبلت مسز مارش ، واتخذت مقعدها المعتاد ، وقد بدا كأنها

لم تستمتع بعطلتها . قالت لبث :

— هأنذا أعود إليك ياعزيزتي ، وإن شئت اشتريت لك غداً

عصفوراً آخر .

وارتمت بث في أحضان أمها ، وأشرقت وجوه الفتيات فرحاً وسعادة ،

قالت مسز مارش تسألهن :

— أترين أن نمد العطلة أسبوعاً آخر ؟

فصاحت چو فی حزم :

— لا أريد مزيداً من العطلة يا أماء .

وقال أخواتها في نفس واحد :

— ولا نحن أيضاً .

قالت الأم :

— هل أفتعتكن التجربة بوجوب العمل قليلا ، ولذة التضحية في

سبيل الخير المشترك ؟

فهزت چو رأسها وقالت :

— لقد سئمت الرقاد والكسل ، وأريد أن أقوم ببعض العمل .

وكانت مس كروكر قد بادرت ، فأخبرت مسز مارش بأمر الوليمة

ومأساتها ، فقالت الأم لچو وهي تضحك عالياً :

— ما رأيك في أن تتعلمي شيئاً من أصول الطهي ؟ إنها تسلية مفيدة ،

لا غنى لامرأة عنها .

وصاحت ميج ، وقد ساورتها الشكوك فيما استهدفته أمها بتصرفاتها

طوال اليوم :

— هل خرجت اليوم ، وتركتنا وحدنا ، لتختبري قدرتنا على

تصريف الأمور ؟

قالت :

— نعم يا بني ، فقد أردت أن تدركن أن لا راحة لإنسان ما لم

يؤد واجبه ، ويقم بنصيبه من العمل مخلصاً . فلقد كان تعاوئي مع حنة على تصريف شئون البيت يسهل لكنّ الحياة ولا يسعدكن ولا يرضيكن ، فأردت أن تتعلمن بالتجربة كيف تنقلب الأمور ، إذا سلكت كل واحدة منكن سبيلها ، ولم تفكر إلا في نفسها . إن الحياة أخذ وعطاء ، وبغير العمل تفقد الراحة جمالها .

صاح الفتيات معاً :

— صدقت يا أماه ، صدقت !

قالت :

— إن العمل وجه للحياة مفيد ، ومن الخير أن تقوم بنصيبنا منه ، مهما بدا متعباً ثقيلاً ، ففيه مقتاة للملل ، وفيه إنعاش للروح ، وفيه أيضاً قوة معنوية لا تغلب .

قالت جو :

— سترين من اليوم كيف نعمل باجتهاد ، وكيف نؤدى واجباتنا مخلصات ، وسأعمل بنصحك يا أماه ، فأتعلم الطهى خلال عطفتي ، لأنجح كل النجاح في وليمي القادمة .

قالت ميج :

— ويسعدني أن أحوك قمصان والدى بدلا عنك ، يا أماه ، وأشغل نفسي عن التذمر والشكوى بمثل هذا العمل المفيد .

وقالت بث في عزيمة :

— لست أرى داعياً لإضاعة الوقت في الموسيقى واللعب ، ومن الخير أن أدرس وأجتهد .

قالت أمى ، وقد راقها بطولة أختها بث :
— أما أنا فسأتعلم عمل العراوى ، وأعد بأن أحترس في اختيار الألفاظ النحوية الصحيحة .

قالت مسر مارش :

— عظيم . . يسرنى أن نجحت التجربة ، ولم نعد فى حاجة إلى تكرارها ، ولكنى لا أرى أن تندفعن فى العمل ، فترهقن أجسادكن كالإماء ، ونصيحتى أن تنظمن أوقاتكن ، وتوزعنها بين العمل واللهو ، حتى يمضى بكن اليوم مفيداً ممتعاً . أحسن استغلال الوقت تستمتعن بشبابكن ، ولا تحزنن فى مشيبكن ، فتصبح الحياة ناجحة رغم الفقر والحاجة .

قال الفتيات فى حماسة :

— سنذكر نصيحتك إلى الأبد يا أماه .
وبالفعل تذكرن ، وعلمن دائماً بنصيحة أمهن .

رقم الإيداع	١٩٨٣ / ٤٧٦٥
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٦٢٧- X

١ / ٨٣ / ٩٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.٢٠٠٤)